خالد أقلعي

خريف العصافير

حازت هذه الرواية على جائزة محمد الحمراني للرواية العربية بميسان العراق 2013

رواية

العنوان : خريف العصافير
المؤلف : خالد أقلعي
الإيداع القانوني : 2014MO3514
ر د م ك: 978-9954-568-29-3
خطوط : عبد الخالق الطلّال
تصميم الغلاف : أحمد البقالي

الطبعة المغربية الأولى 2014

منشورات باب الحكمة
تطوان- المغرب

تذكير لا بدّ منه :

« هذه رواية متخيّلة، ووجود أيّ تشابه بين أحداثها
وشخصياتها وأحداث أيّ واقع موضوعيّ وشخصياته ما
هو إلاّ من قبيل المصادفة المذهلة التي تتقن صنع النّظائر.»

المؤلّف

فندق النّخيل
السبت 18 ماي 1994
23:30

هذا مساء ثمل مرهق...غيوم لا تزال تعربد على سمائه فتبعث قشعريرة البرد في الجلد والأعصاب...

يخترق الشّارع الغاصّ بالأجساد مفخّخا. الأضواء الواشية تعميه. أضواء مصابيح السّيارات وأعمدة النّور ولافتات البوتيكات الفاضحة ونوافذ البارات والمواخير...ينتهي إلى شارع خلفيّ مظلم فيخفّ ثقل حمولته ويصغي إلى نبضات القلب الفظّة الواهنة تنذر بجلال المهمّة وخطورتها! يأبى العقل أن يَطمئنّ لوجاهة البراهين وبداهة الأسباب. رغم خدر عجيب يتلِف آلام الأعصاب، وسكينة شفّافة تبعث برودتها الناعمة لتلطّف من اشتعال الأطراف. يتوغّل في ساحة النّخيل. يغالب حالة وجده. يتعثّر إيقاع الذّكر في شفتيه مخلخلا انسياب ترتيله النّاعم، مزلزلا كيانه المتخشّب الضّامر...

تدنو خطواته المتردّدة المتعثرة من «فندق النّخيل» الفخم. ليس بمدخله الرّحب غير بوابين شابين يرتديان زيّا تقليديا موحّدا: سروال قندريسيّ وبدعية حمراوان وطربوش تركيّ. الملتحي منشغل بحديث خافت عبر هاتفه النقّال. الحليق يركب سيّارة فخمة؛ ينزل بها مرآب الفندق العميق. يبرق الخوف في كيان جعفر فيستجيب عقله؛ الدخول من البوابة الرئيسة قد يثير انتباه ضابط الشّرطة الواقف غير بعيد، وكذلك حراس الأمن وموظّفي الاستقبال...يحتار برهة في اتخاذ قرار حاسم. ينتهي إلى أن له مطلق الحريّة في تأخير العمليّة، تأجيلها أو إلغاءها إن لزم الأمر. لكن أطياف الآخرين ترهقه؛ ردود أفعالهم غير المأمونة، صورته أمام الله، أمام الأمير، أمام مفضّل والجماعة، أمام نفسه. وماذا عن قسم العهد والوعد، عن النّعيم الموعود والخلاص من الأصفاد، من هذا السّجن الفاحش المجرم الذي يسمونه الدّنيا، من الكابوس، كابوس حياته الغاصب القاهر...

تتبدّد فكرة الارتداد. يخفّ الخطو إلى الأمام على هدي المصابيح الخلفية للسيّارة الفارهة. خريطة المرآب قبالة ناظريه؛ قبل أن يصل إلى عمقه المضيء، كليّا، عليه أن ينعطف يمينا حيث الممرّ القصير المفضي إلى باحة المطبخ، ومنه إلى المرحاض الخاص بزبائن الفندق من المقيمين، ثمّ إلى قاعة الطّعام، لينتهي، أخيرا، في جوف حلبة رقص رحبة تضجر بالأضواء والأنفاس والروائح، تلتهب بسعير الموسيقى الصاخبة وقهقهات المبتذلات وتغنّج الغواني ولغط السّكارى وجلبة كؤوسهم.

يتسمّر في مكانه مشدوها إلى وابل المصابيح الملوّنة تفضح حشرا من أجساد شبه عارية تتلوّى مثل الأفاعي على حلبة الرّقص، توشي بأزواج متناثرة في الزّوايا المعتّمة ملفوفة بغياب شهوانيّ، منجرفة إلى التحام آسن وعناق وقبلات...

ومثل البرق تلمع في ذهنه صور الماخور إيّاه؛ سجن أمّه المقيت بمدينة «رموش العروس». يستعرض في رمشة عين مكنون أسراره، ضحاياه وجلاّديه: مزيود، الدّاهي، طامو، فنّة، سيوانا والأخريات...يلتقط سمعه فحيح همس داعر فينخرط في موجة استغفار. يسقط بصره، على غير إرادة منه، حيث تزحف الأيادي الممتدّة نحو الأفخاذ العارية، حاملة نخب الشّيطان، مطوّقة الخصور الوقحة. يلتهب جلده لرؤية الأظافر الطّويلة المصبوغة جراحا، الأنامل الصفراء المرتعشة تفتل خصلات شعر ولفّافات حشيش، شفاه مسخ تقطر نبيذا حمرة بطعم الدّم، تهذي لغوا وفحشا، تفضح أسنانا صفراء متداعية كحولا وسحابات افتراء وسفه ودخّان... ثمّ لا شيء غير الأرداف والسّيقان؛ سيقان تائهة وواثقة، مقرفصة ومنفرجة، مندفعة ومحجمة، متردّدة وحائرة، متخمة وجائعة، غبيّة ووقحة... سيقان قاهرة فاجرة لا تعرف الخجل...

كم طال انتظاره لأمّه، بإحدى غرف ماخور الدّاهي!... وهناك أيضا تناسلت السّيقان العارية تعبر كوّة الغرفة الواطئة عند مدخل الماخور؛ اختلفت أشكالها وأحجامها ومساحات عريها، فيها السّمين والضّامر، البضّ والأعجف، الأسمر والأشقر.. سيقان موشومة بقروح وخدوش وحروق أعقاب السّجائر وجروح سكاكين معافاة وشفرات حلاقة..

وفي معمل الحاج عشيبة، أيضا، حيث أنفق سنتين من عمره، انفرجت بوابة المكتب عن ساقي بديعة السّمينتين. تمضغ لبّانتها بغنج. كفّها تعبث بشعر عبد المنعم الذي يتغشّاها، وتقلّب جيوبه بالكفّ الثانية! لمحت جعفر مشدوها إليهما من

خلال فتحة الباب الموارب. غمزته برموش عينيها الوقحتين وضمّت عبد المنعم إلى حضنها بخبث وأخذت تتنهّد. تضحك وتتنهد...

يلتهب بصر جعفر ويتيه بين فجاج صدور عارية تنطق إغراء وشهوة. يشتعل غيظا قاهرا من كلّ مَن يعبر مشاهد مخزية مماثلة من دون أن يخجل أو يُنكر أو يحتجّ. ولأوّل مرّة، مذ انضمّ إلى الجماعة، يغشاه يقين صارخ في صواب ما يقبل عليه، وفي أن أحوال الجاهلية لم تكن أسوء مما يراه بأمّ عينه، هنا والآن، من فجور معلن وفحش فادح. وأخذ يتحسّس موضع التّفجير من حزامه النّاسف، وهو يغالب نبضات قلبه السريعة المتلاحقة...

كان عانق، منذ أيام، رفيق عمره مفضّل الذي أحبّه كثيرا؛ أكثر من أبيه وأمه، واغرورقت عيناهما بالدّموع وهو يودعه إلى اللّقاء المأمول، تماما، كما ودّع جدّته وذِكرى ثاني أيام العيد! وأخذت صور من شريط الطفولة العزيزة تعبر مخيّلته تباعا: اشتعال شقاوة محسن الممتعة، سندويشات (علي بابا) ذات المذاق الخارق، أمسيات الفيلم الهنديّ«بسينما إسبانيول» رفقة النّجوم شاشي كابور وشامي ودامِندرا وأميطاباشا بعد جولات سوق«باب النّوادر»التجارية الموقّتة حيث كانوا يحمّلون أغراض المتسوّقين مقابل دراهم معدودة. وتذكّر شقّة المدير «بزنقة الزّاوية»؛ شرفاتها المطلّة على «ساحة الفدّان» الفاتنة الرّحبة، وبهاء الطّائر الحجريّ المحلّق من آخر طابق في «عمارة الطّير» الشّهيرة؛ ملعونة أنامل النحّات الأندلسيّ السّاحرة التي نقشت جناحيه الموحيان بالتّحليق بعيدا في الأعالي!...

ويفلت من ذراع عمّته الصّارمة العجفاء ليحطّ بخفّته المعهودة على مقربة من ذكرى الطريّة. تختلس كفه المرتعشة لمسة من صدرها الوليد النّافر...ثمّ تتوتّر الأضواء الملوّنة وتتلاحق فيصطدم رأسه بخردة الحديد والزّجاج في مستودع المدرسة المظلم حتى يسيل الدّم على محيّاه... أبوه، أيضا، لم يرحمه؛ اشتعل سعاره مساء خميس وسط «السّوق الفوقي» وأخذ برقبته وهو يصيح ملأ فيه حتّى يسمعه الناس «ألم أقل إنك من سلالة قوم لوط، ألم أقل إنّك ابن زنا ؟». ويصبح صوت الأمير أكثر وضوحا وحجّة من ذي قبل.

ويغوص. يغوص إلى الرّكب في وحل حلبة الرّقص بمهل وحذر. تنقشع عن عينيه غشاوة سميكة فتبدو له وكأنّ قرونا صغيرة دقيقة أخذت تبين من رؤوس من حوله. القوائم السّوداء تتفتّق عن جلد الأحذية اللاّمع. تتدلّى من الخصور أذيال مشعّرة طويلة معقودة، ويغوص الفضاء في رائحة كريهة أشبه ما تكون برائحة خنازير بريّة. يقترب، بمقدار، ليدقّق في الوجوه الكالحة. يرتعب من عيون مشتعلة جمرات متّقدة حمرة، وأنياب تسيل دما ولعابا أخضرا على شفاه زرقاء مشروخة. ويشهد بذهول تحوّل الأنامل النّاعمة حزما من المخالب الحادّة اللاّمعة! يوقن جعفر، حينئذ، أنه في قلب مملكة الشّيطان، وألاّ مجال الآن للتّفكير أو التردّد؛ ها قد انتبهوا إلى وجوده، وشرعوا يلتفتون نحوه بسحناتهم المرعبة، يفضحون بسبّاباتهم الدّقيقة موضِع وقوفه، وبانت منه التفاتة إلى مدخل المرقص، فلمح نفرا منهم، أكثر فتوّة وأشدّ قوّة، يقبلون نحوه بخطوات حازمة وهم يلوّحون بما في أيديهم من مقارع مفتولة وهراوات مسنونة مشتعلة... يحسم جعفر الأمر ويتقدّم إلى عمق الحلبة بخطوات متعثرة دون أن يفتر عن لسانه الذّكر، وفي اللّحظة التي يثبت فيها إصبعه على زرّ الحزام النّاسف تصعقه رموش سوداء عزيزة تقبل مخترقة كيانه إلى أعمق الأعماق... فتة!.

ترتعش كفّه وهي تشتبك بكفّ ناعمة طالما قبّل أناملها ليالي الصّيف الدّافئة على سطح بيت قديم. تسطع بسمتها الماكرة العذبة فتبُدّد كلّ ما حوله. تضمّه إليها في عناق حارّ، فإذا جسدها الرّشيق الدّافئ الطريّ نهرا ناعما يجري به في متاهات العتمة إلى رحاب نور وسكينة، وإذا بأنامل جدّته الدّقيقة المعروقة تعبث بشعيرات رأسه، ترفع صوتها الوقور الشجيّ قليلا، تروي له حكايات علي شار وزمرّد وجودر وقمر الزمان والحسناء جليدة... وتسحبه فتة من يده. تتسلّل به إلى غرفة السّطوح. اللّيل بارد في شيخوخته والنّاس نيام. تلفّهما بطانية خفيفة ويمتطى صهوة حكيها المبحوح إلى حيوات صويحباتها

المرغة في عطن الحقارة... وأخذت الغواية السّميكة تلين وتبين عن نِعم الصّبر والاحتساب، عن رحابة الحياة وعذابات النّاس ونضالهم اليوميّ الشّاق اللّذيذ، وإذا بشامة سوداء عذبة تضيء وجنة فتّة العزيزة وكلّ ما حولها. تختفي القرون والأنياب والأذيال،ويلهج بسؤال ولهاث«ماذا تفعلين هنا؟».

لم ينتظر جوابا؛ انقاد بيسر إلى شاشة الذاكرة المذهلة تعرض كيف أطلقت فتّة ضحكها المسترسل المفعم إغراء يجلجل الأعماق ويعبث بشغاف القلب. وانبسطت أمّه؛ خلعت طقم أسنانها وانخرطت في قهقهة كالنحيب، طوّقت بطنها من فرط الضّحك وعانقته بجنون، تماسكت قليلا وهي تحاكي دهشة طامو وانتقام الدّاهي القاسي منها ومن عياله بعدما يصله خبر هروبهم من رموش العروس...

وها جعفر يضحك، بدوره، ويضمّ إليه بقوّة جسد فتّة. حشرجة ضحكه اللاّهث المتقطّع تختلط باستغاثتها المبحوحة الواهنة! ينتبه فإذا بها تصارع لتنفكّ من قبضته «سوف تسحق عظامي..!». ينتفض من ذهوله ليسأل من جديد «لم أنتِ هنا؟!». تكتسب ملامحها سمات جدٍّ مفتعل وتعاتبه بدلال «كان من الممكن ألاّ أكون هنا، هل نسيت؟!».

يتذكّر، الآن، كيف انقضّت أمّه على فتّة محتاجة غاضبة، وأخذت تضرب وتسبّ وتلعن حتى طار طقم أسنانها وتهوّش شعر رأسها وصُرع الجسد...ويزداد الحمل ثِقلا على جعفر وهو يضمّ إليه فتّة وسط حلبة الرّقص على إيقاع نغمات هادئة. يصغى بذهول إلى نبض الموت يتنفّس بين جسديهما، فتهن ذراعاه وتسقطا، ثمّ يختلط الذّكر في لسانه بتمتمات ذهول وحيرة. وكم تاقت فتّة إلى دفء صدره! تدفن رأسها في حضن الموت وتحكي عن عفّتها وتوبتها وصدق مشاعرها نحوه...

وذات يوم قالت أمّه لسي علاّل مغتاظة «هذا حال الدّنيا مذ سخط الله على آدم: فساد وكراهية وظلم...» وانتصر لها سّي علاّل بحماس«النّاس على جمالة، هل كان الله يرحمنا بالتّوبة لولا فرط ذنوبنا؟». لكن الأمير اشتعل غضبا، وهو يخاطب جعفر أمام جمع من المصلّين «التّوبة النّصوح، يا أخي جعفر، هي التي تحرق الذّنوب، التّوبة النّصوح، لا مكر الفاسقين والمنافقين»...

وكشفت فتّة، لحظة بوح، عن معدن أمّه قائلة:«لا تغتمّ لسيرة أمّك؛ عاشرتها سنوات لم تغفل عن فرض أو سنّة، وكنت أسخر من تقواها وأعلن جازمة: حتّى البحر لا يكفي لغسل قذارتنا، فتكبت دموعا حارقة وتمتم: رحمة الله أوسع من البحر».

«أوسع من البحر» يردّد جعفر مذهولا عن فتّة وعن محمّته. وتصفو ابتسامته عندما يتذكّر رذائل صديقه محسن ونظراته النّزقة توقا إلى الملذّات وإرسال شعر رأسه الكثيف إلى الوراء. يضطرم وجدانه حنينا جارفا إلى سماع صوته المبحوح المتقطّع، وضحكته القصيرة الخبيثة المستفزّة. يصغي إليه وهو يقرأ ما دوّن في مفكّرته الصّغيرة من مغامرات عاطفية خطرة بخطّ رديء مليء بالأخطاء. يستحضر جعفر نكته العارية الوقحة، وحلم الاقتران بإحدى الحسناوات البوسنيات المغتصَبات من قبل الصّرب إبّان مجازر كوسوفو. يوقن في أنّ صدقات محسن الكثيرة، وهو لا يزال صبيّا غضّا، وزياراته المتكرّرة لمرضى«مستشفى سانية الرّمل»، ومبادراته إلى إسعافه العجزة والمعاقين"بملجأ سيدي فريج" كانت دائما منبع سعادته وقوّته وإقباله على مباهج الحياة. وينقبض قلب جعفر عندما يتذكّر مغامرته الأخيرة القاتلة: كان محسن اعتاد القفز، بمهارة، على الهوّة القصيرة الفاصلة ما بين سطح بيتهم «بزنقة فندق النجّار» وسطح«حمّام دمحلي» حيث كان يتلصّص النظر، من ثقبه السريّ، إلى المستحمّات من نسوة الحارة. ولكن رجله تعثّرت بحافة السّطح، ذات عصرٍ غائمٍ، ليرحل في معيّة صباه.

ها طيف ذكرى يدنو منه فينفطر له قلبه. تهمس وهي تتّقي أشعة الشّمس بكفها ورموشها السّوداء الكثيفة«ألسنا في طريقنا إلى الموت؟ نقضي صغارا أبرياء أفضل من أن نشيخ في كنف الإثم؟!» حتّى طيف جدّته لا يزال يبتسم ويربت على كتفه ويقول: «اللّهم كبّرنا على طاعتك». وفي هذا الخضمّ من الصور السريعة المتلاحقة تطغى صورة جاره العكرود

الفاسد على كلّ أخبار الجريدة؛ أنباء طغيانه الجامح وأخلاقه المقيتة المنكرة، عصاباته التي يحرّكها بإشارة من سبابته، ثمّ نهايته الملفتة؛ اخترقته رصاصة أحد زملائه، وهو في رحلة قنص، أسبوعا فقط بعد ما شاع حول مسؤوليته المباشرة في اختفاء الأستاذ كريم التهامي، مؤسس (حركة شفافية ضدّ الفساد).

ويتفكّر جعفر فيتمثّل له الموت في ألف لون ولون، ويوقن أنّه من الصّعب التّمييز بين ميتة وميتة، وأن يرحل الإنسان عن هذا العالم فتيّا أو هرما، يقضي على سريره أو ممزّقا على أرصفة الطّرقات لا يعني شيئا آخر غير أنّه مات وانقضى أجله. وتضيء وجدانه فكرة ألاّ علاقة له بالموت؛ هو طالب شهادة وحياة! ويغمض عينيه ويتحسّس الحزام النّاسف ويتمتم«ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتا...». لكن، صخبا وجلبة على مقربة من الكونتوار يوقظانه؛ يدهشه أن يشهد عناقا حارّا، في هذا الفضاء الموبوء، ونصائح ودعوات« الله يرحم والديك، اعتن بالوالدة، لا أريدها أن تحتاج شيئا، سوف أرسلها هذه السّنة، إن شاء الله، لأداء مناسك العمرة. إيّاك أن تنسى موعد دواء الوالد أو أن تفرّط في حماية إخوانك، لن تطول غربتي ببلجيكا هذه المرّة، بالي مشغول بكم دائما». كان الكهل الكئيب يوصي الفتى المصغي بحماس كبير...وكان خطاب جدّته مكتوبا بكفّ متوتّرة اعتمد على عوينات سي علاّل ليتحقق من فحواه «الله يرضى عليك يا ولدي، اعتني بأمّك، وتأكّد أنّ بالي مشغول بكم دائما»... وليلة الفتنة الصغرى انبجس الدّمع من مقلتي فتّة، وارتمت على صدر أمّه تنتحب وتردّد «والله ما لي فراق معكم؛ أنتم أهلي وأحبابي ومعارفي في هذه الدنيا»...

غشيته ريبة صريحة في جدوى ما يقبل عليه. اخترقه صوت سي علاّل الهادئ الحييّ وهو يكشف عن مصدر الكفالة ونفقات المحامي«باعت أمّك ذهب صداقها، ورهنتُ الدكّان»..«كيف ستصبح حياة با علاّل بدون مكتبة؛ مصدر رزقه ولقمة عيشه؟». وأيقن جعفر، مرّة أخرى، أن أيّام عمره لم تكن أشدّ قسوة من حياة أمّه، مثلا، أو حياة فتّة أو فاطنة، أو حيوات مسعود ومحسن وذكرى ومزيود وكلّ الذين عرفهم ...ثمّ إنّ سي علاّل أعلم منه بشرع الله، بل ومن الأمير نفسه! مكتبته لا مثيل لها في شمال البلاد؛ يحجّ إليها طلبة العلم من مدن القنطرة وفرياس ومكسوط، بل وحتى من معاهد الصّحراء وجامعاتها «اقرأ باسم ربّك الذي علّم بالقلم...»! أحاسيس ملتبسة تعصف به الآن يحاول أن يميّز بينها. أشياء كثيرة يتوق أن يتعلّمها، وأبواب موصدة كان ينبغي أن تُفتح. كتبٌ لم يقرأها بعدُ، مدن أخرى سمع عنها ولم يزرها، كلّ الذين ضربوا في أرض الله أجّجوا في أعماقه جمرة الشّوق والتشوّف إلى ربوعها، وتعرّف مخلوقاته. ولأول مرّة في حياته يدرك أنّه مختلف، فعلا، عن مسعود والآخرين؛ إنّه مدين لنفسه ولله بالبقاء والعمل والإصلاح في الأرض؛ مدين لأمه وفتّة وسي علاّل ومزيود وكلّ الأحبّاء بوجوده وإصراره على مزيد من الصبر... ويمتزج ذهول كيانه بسكينة وسحابات قلق واهنة. ويبين صوت الحياة يدفئ أطرافه فيخفّ الحِمل وتأخذ خطواته تتّسع وتثبت بعدما كانت تضيق وتتعثّر..!

على مقربة من مدخل الفندق يلمز الحارس الحليق صديقه ويبتسم بخبثٍ. يتمسّك جعفر بذراع فتّة التي أخذت تسحبه من بين مسالك الحيرة إلى شطّ الأمان. وتلفحهما برودة الشّارع وهما يولدان من جديد.«لم أكن أعرف أنّك تسكَر!» تعلّق فتّة على شدّة ترنّحه، و تساعده على صعود الأدراج المؤدّية إلى «شارع النّخيل». يرنو جعفر إليها من خلال عينين غائمتين وابتسامة ساخرة تتّسع بين شفتيه. تضيف بحزم « لن أقبل بصحبتك إن فعلتها مرّة أخرى». ينتزع ابتسامة مكدّرة في نفس اللّحظة التي تزلزل الدّنيا من تحتها إثر انفجار عظيم على بعد مئتي متر. تصرخ فتّة مذعورة وتلوذ بحضن جعفر. ينتبه والرّعب يتدفّق إلى جوفه فتجحظ عيناه وتنفر أوداجه ويأخذ في الالتفات حول نفسه مذعورا...الدّماء تسيل من جبهة مفضّل الفتيّة ونظرات زنيفح النّزقة تنطق بكلّ خبث الدّنيا...يتخلّص من ذراع فتّة وينطلق نحو موقع الانفجار. يخترق عباب الدّخان الكثيف. تمتزج، في ذهنه المحموم، صور أجزاء الطّاولات المتآكلة والسبّورات وجثث الفئران بأشلاء آدمية وغبار وأنين وصفّارات إنذار ونار ودخّان...ويعرّي جعفر نفسه يحاكي مزيود. يتجاوز الضّباب مترنّحا نحو بؤر النّور السّاطعة

المقبلة نحوه؛ يصغى إلى قرقعة بنادق وصراخ وتحذير وزغاريد مدويّة...تلتقط الضّربة الخاطفة قفاه، فيسقط متوجّعا وسط بركة ماء ودم.

كانت المصابيح الملوّنة تتدلّى مثل عناقيد العنب من منزل الحاجة إلى سطح بيت سي علّال منذ ساعات المساء الأولى...وكان جعفر اقترب من ذكرى، هذه المرّة، بدون خوف من المستقبل أو توجّس، فبدا وجهها أبهج ضياء من الأمس وتوهّجا! وهمست في أذنه«لن أقبل بعريس غيرك». أخذت أناملها الدّقيقة النّاعمة تلفّ بعناية شرائط ملوّنة حول معصميه، وكان جعفر يهذي مستسلما، محموما، متسائلا عن مصدر كلّ هذا الألم الذي يتدفّق من معصميه وقفاه؟!

المستشفى المدني
الجمعة 24 ماي 1994
15:11

أدركتُ من مداعبة فتّة أنها تعاتبني؛ كيف أنّني، منذ ثلاثة أيام من الحمّى، لا أهذي إلاّ باسم ذكرى. وفهمتُ ما أرادت أمّي أن تقوله بمجرّد ما التقطت أنفي رائحة صدرها الخافق والتفّ حول عنقي المتخشّب دفء ذراعها الملتهبة. ثمّ بدأتُ أقاوم تداعيات الحمّى لأميّز الوجوه المنتشرة قبالتي وأحدّد موقعي.

بسمة أمّي صفراء باهتة، وشفتا سي علاّل تتوتّران بفعل ترتيل خافت من دون أن يفتح عينيه، بينما تتسع بسمةُ أنيقٍ حليقٍ يقف على مقربة منهما لتعلن: لا تقلقوا، سوف نقوم بالواجب...ولكن، كيف؟ نظرات فتّة تقطر زيغا وذهولا وحزنا، وملامح الآخرين، المنحوتين خلفها في مواقع متفرّقة من الحجرة، صارمة لا تبشّر بفرج!.

أغمض عينيّ، برهة أخرى، أستجمع ما قد يسعفني في تحديد المكان الذي أوجد به...

« نزلة برد أوشكت أن تقضي عليك»تربّت جدّتي على كتفي وتضيف«لم تكن أكملت الخامسة من عمرك بعد. تمرّدت على أبيك بعدما طلّق أمّك. اعتصمت بالسّطح في تلك الليلة العاصفة من أيّام الحرث. عرّيت نفسك، تماما، وشرّعت ذراعيك لعناق الرّيح والأمطار وزمهرير البرد. لو لم تصعد عمّتك لتسدّ المنقاص لعثرنا عليك في الصباح جثّة هامدة». من يومها، أصبحت الحمى توأم روحي؛ تلازمني أينما حللت وارتحلت. لم تعد خزانة جدتي تخلو من مقاييس الحرارة ومحاليل طبية، يزوّدون مدرستي ببعضها خشية أن تلتقطني الحمّى وأنا في الفصل فتفتن معلّمي. أعترف أنني لن أغفر لأبي فعلته بأمّي أبدا ما حييت، ولا أحسبه يغفر لي ما سبّبت له من متاعب ونفقات ذهبت بجزء كبير من مدّخراته.

وبينا نطعم الحمام بالسطح أعلنت **ذكرى**، وكانت لا تزال تنعم بالعافية والبهجة« هل تدري أنك تذكّره بوقائع فراق أمّك، قسرا، على ما يكنّ لها من حبّ متأجج تحت رماد الكراهية؟». وعزمت أن أنتهز نشوة الحديث عن الحبّ لأنهب قُبلتي المأمولة، لكنها قرأت أفكاري؛ ابتعدت تحجب وجهها بكفيها متغنّجة بقناع التذمّر.

عندما بلغت السّادسة من عمري تزوّج أبي مرة ثانية. يغيب عن ذاكرتي كثير من تفاصيل الحفل المخزي الذي قوّضه خالي فتحي بمظهره المُلفت، ولكنني أتذكّر بوضوح البيت الخشبيّ الذي وعدني به أبي بعد ذلك، وشرع يركّبه من بقايا خشب دولاب أمّي بعدما فكّكه واستعمل بعضا منه في تدعيم حواشي فراشه الجديد! «بيت من خشب يشيّده لك أبوك، لتلعب داخله أنت وصديقتك ذكرى، ألا تحبّ أن يجمعكما سقف واحد؟» هذا ما أعلنته العقربة، وزكّته نظرات أبي النزقة.

ومن فرط فرحتي أخفّ إلى السّطح لأبشّر ذكرى، نؤثّث عالم أحلامنا الورديّة داخل غرفه الكبيرة الواسعة، وشرفاته العالية الرّحبة المطلّة على البحر. وتعاند ذكرى وترفض طلبي؛ تقسم على ألاّ تمنحني قبلة حتى نوثّق العهد ونحيي الأفراح واللّيالي الملاح.

لكن القصر الخشبيّ لم يكن ليتّسع لنا: مجرّد صندوق مربّع معتّم يحول دوني والانطلاق في أرجاء بيتنا الرّحب!

ويوما، علّقت جدّتي على الأمر بصراحة لاذعة، ورأت فيه من الجور والقسوة ما لا يتناسب مع ما أرضعت ابنها من شهد حنان وطيبة. غير أن عمّتي ألفَت الفكرة ملفتة«وكان سِي لحسن يحكي لي كيف صنع الاستعمار هذه الصّناديق لتصبح بمنزلة قبور واقفة يزجّ (بالفوضويين) داخلها لينهكهم ضيق التنفّس وطول الوقوف»، وألهمها تاريخها الأسود على سرير عشيق جلاّد فاقترحت مكوّنا آخر يضمن ثبات (الفوضويّ) في مكانه، وعدم تسلّله خارج الصّندوق: حبل يلتف حول خصره ويشدّه إلى شبّاك النّافذة الحديديّ! وبذلك تحوّل القصر الخشبيّ المأمول إلى زنزانة مقرفة طالما قاومتُ للتخلّص منها...!

كنت أقضي سحابات يومي أفكّك دماي الكئيبة وأعيد تركيبها، ولا يشغلني عنها إلاّ اقتحامات مخاطرة تنفذها كتيّبة عصافير تطارد بعض الفراش الذي يختبئ بين حواشي زجاج القبّة. رقبتي الفتية تؤلمني وأنا أتابع المطاردة بشغف كبير، وأكثر ما كان يذهلني توتر أجنحة العصافير عند الانطلاق، ثمّ لململتها لحظة الهجوم.

وأتوسّل إلى جدّتي بتودّد صادق«لله جدّة... فكّي وثاقي». «لن أفلتك حبيبي، والدك يخاصمني» «لله جدّة، دقائق فقط» «العزيز الله، ولكن، أسرع قبل أن ترجع عمّتك والأخرى من السّوق، لا يجوز إغضاب أبيك».

تغامر جدّتي وتفلتني. أخفّ إلى السّطح لأزاول بعضا من هواياتي: اصطياد العصافير واستفزاز ذكرى. أرسل صيحات قصيرة خافتة أو صفير حادّ مسترسل ولكنها نادرا ما تستجيب...

وأضيق بزنزانتي القصيرة الكئيبة فيزداد حنقي على كلّ من بالدّار، باستثناء جدّة، طبعا. تدنو منّي على متن كرسيها المتحرّك لتؤنسني، تارة بسرد حكايات عجيبة ملغزة، وتارة أخرى بتلفيق خرافات تافهة مرعبة تحسب أنّها تهوّن بها عليّ قهري وقسوة قدري.

ومع الأيام، تضَع العقربة خنزيرها الأوّل، فيعدني أبي بعتق رقبتي، ويلمّح أكثر من مرّة إلى أنّه مستعدّ لإطلاق سراحي إن أَبليتُ في إبداء حسن نيتي وامتنعتُ عن إثارة الضّجيج وبعث الفوضى في أرجاء البيت، وبينا أبادر بتقديم الوعود ورفع العهود مبتهجا بالعفو، تبين ملامح جدّتي عن حزن وغمّ عظيمين! وتحتجّ عمّتي لطيفة ساخطة على مثل هذه القرارات غير المتبصّرة؛ سوف تودي، لا محالة، بالنّظام الذي دأبت على بسطه في البيت مذ تمّ اعتقالي. ولا أبالي، أنطلق فأرا أقضم حريتي من ركن إلى مخدع، ومن قبو إلى عليّة حتّى يستقرّ بي المطاف في السّطوح على مسافة قُبلةٍ من ذكرى..!

بميلاد شمس جديدة تفتضح المؤامرة؛ ينتقل صندوقي إلى غرفة نوم أبي ليرتع فيه خنزيرهما الصغير! يمُسخ عيد حريّتي حنينا جارفا إلى دفء معتقلي الخشبي وعتمته.

أتذكّر بقوّة كم كانت حرّيتي مؤلمة !.

***

الألم يستيقظ من جديد...

تتغيّر مواقع التّماثيل المزروعة في الحجرة من دون أن يفتر إحساسي بكثافة وجودها. تتناوب وجوه مستطيلة ضّخمة على ملء بصري، أميّز بصعوبة لون عيون جاحظة مرمّشة وياقات قمصان قذرة وإطارات نظّارات سميكة وصفرة أسنان وتسوّسها وروائح عرق وتبغ رديء ونبيذ بائت ولهاث متقطّع منبعث من السّمين الأشقر ومنبّهات شاحنات وسيارات وصراخ باعة من السّوق المقابل وأشعة نور ساطعة متسلّلة من فرجة ستارَي النّافذة حيث يطلّ النّحيل الأسمر وقرقعات...

وأغمض عينيّ مكرها فأرتاح...

ثم أشتمّ رائحة عطر أليف فأفرجهما. ألقي نظرة غائمة من تحت ذراع الممرّضة إلى معصمي. أوقن هذه المرة في أنني مشدود بأصفاد إلى سرير طبيّ؛ ثمّة وجود لأنبوبين منعشين مغروزين في وريدي، ورائحة الدّواء وسوائل التّطهير والتّغذية القسريّة أخذت تتسلّل إلى أنفي وتخدّر كياني بعنف ملحوظ...

كم امتلأتُ حقدا على العقربة وضجرا من أبي وعمّتي البلهاء القاسية أيضا. وكان بريق العطف يمو في نظرات جدّتي الحزينة الصّامتة إلاّ في حضور أبي.

وانهارت...

عصر خميس خريفيّ.

انخرطت في نحيب خافت أفزعني واهتزّ بفعله جسدها الضّامر وأومأت النّظرات:«قدني إلى غرفتي».

فعلتُ.

وعندما سترتنا حجرتها الأرضية الرّطبة أخرجت رزمة صغيرة من أحد أدراج دولابها المتداعيز فتحتها ووضعت بين يديّ كلّ ما كان بداخلها...

واندفع باب الحجرة بعنف.

انتبهت بصعوبة إلى إقبال البياض الخاطف نحوي. شابّ يخترق الحضور متبوعا بامرأة لم أكلّف نفسي عناء تبيّن ملامحها. شرع يجسّ النّبض من دون أن يسأل أو يبتسم. أمرها بأن تفكّ الأنبوبين المشدودين إلى وريدي لدقائق معدودة. وبينا كانت تفعل أسعفتني وضعيتي، هذه المرّة، في تبيّن سواد جلدها وانتفاخ شفتيها. كشفَت ابتسامتها الوجلة عن أسنان بيضاء مصفّفة بدقّة...

وقلت لذكرى يوما:«ابتسامتك مبهجة وأسنانك تنير العتمة»، فزادت ابتسامتها اتّساعا لتلد ضحكة حائرة تضرّج بفعلها وجهها حمرة. ثم انصرفت ترفل في كسوتها السّماوية متهادية قبل أن تلتفت نحوي وتسأل:«ممّن تتعلّم هذا الكلام الماسخ؟!».

غمرني حنين جارف وأنا أقلّب بصري في وديعة جدّتي: صورة أمي ترتدي كسوة العرس البيضاء، بعض أوراق نقدية بالية مبقّعة، وقطعة ورق دوّن عليها عنوان... وارتجّ كياني من طيب عبير شعرها؛ كانت ذكرى دلّت رأسها من على كتفي وشرعت في قراءة الورقة المبسوطة بين كفيّ:«السعديّة جيجي«حارة النيّارين»رقم 21. من هذه السعديّة؟!».

«خالتك الوحيدة، قالت جدّتي مغتمّة، هي أعلم بديار أمّك، امض إليها؛ لم يعد لك مكان آمن هنا».

جدّتي على علم؛ مكائد العقربة لا تفتر ولم يعد يسعها محيط. تتحيّن الفرص للإيقاع بيني وبين أبي. تنسج خيوط حكاية منكرة يبدو أنها نجحت في إقناع عمّتي بتفاصيلها الفاجرة«...وهذا فوق طاقتي؛ يتصيّد الخلوة ليضايقني بنظراته الوقحة، وفي السّطح ضبطته يعبث بملابسي الداخليّة»! كانت العقربة تدبّر لإقامة أخيها المفلس بيننا. ثمّ إن عمّتي البلهاء صدّقت ادعاءها، ولم تتردّد في غرز لسانها الحادّ السّليط في ضلوعي، على انفراد تارة، وفي حضور أبي الذي أخذ يتطلّع إلى فكّ شفرة تعليقاتها المبهمة. وفعلَت ذلك أيضا بحضور جدّتي، التي عنّفتها وخيّرتها ما بين السّخط والرّضا إن هي فاهت لأخيها بهذا الافتراء العظيم«يكفي ما جرّته علينا كراهيتك لأمّه، اعتقي الولد، اعتقيه...».

وفي مساء ربيعي كئيب عانقتُ حماي وذكرى التي أذبلها المرض اللّعين بحرقة وغمّ قاهرين! كانت انتصبت قبالتي، يوما، مومياء مهيبة تحضّنها نظرات ريبة وغموض. قد أكون استدرجتها للحديث عن دواعي رحيلي المباغت، وأقسمت عاقدا العزم على العودة في أقرب فرصة، لكنها ضمّتني إلى صدرها بشوق عارم، ثمّ طبعت على شفتيّ قبلة طويلة مشتهاة و لم تفه بكلمة؛ هل كانت توقن في أنّنا لن نلتق بعدها أبدا؟!.

تجاوزتُ عتبة بيتنا القديم، ورفعتُ هامتي أتأمّله في نظرة أخيرة فلمحتها: جدّتي وذكرى؛ تلوّحان لي من نافذتَي غرفتيهما، كما لو كانتا شخصا واحدا! اشتعلت أطرافي بفعل قشعريرة شعور غريب؛ مزيج من شوق وحنين وحرقة فقدٍ، ثمّ لفّتني مشاعر تيه قاهرة اجتهدتُ لاغتيالها ببعث قبلة أثيرية حائرة إليهما.

قبلة أبحرت بعدها في خضمّ وجل وشجون أيقنتُ أنهما سيعصفان بي...

***

قفاي ملتهبة و الحمّى تنهش عروقي، ولا يزال الألم يمزّق معصميّ بفعل ارتعاش كفّي الممرضة وهي تنزع عنها الأنبوبين؛ لم تك خشونة أصابعها تتناسب مع تلك البسمة التي تشعّ صافية من شفتيها المكتنزتين، وهي تمارس مهامها بكثير من الحرفية وبآلية وحزم تجعلاني أحسّ بضعفي وقلّة حيلتي! ملكا رحيما، كانت، يرفل في بياضه. تهمس بصوتها العذب وهي تعدّل من وضع مخدّتي وتمسح العرق عن جبيني، تفعل ذلك ببسمة متوهّجة دائما مثل شمس بالغة.

وأعترف أنّ البسمة التي انفرجت عنها أسارير خالتي السعديّة، عندما زرتها للمرّة الوحيدة في حياتي، لم تمح من ذاكرتي أبدا: خليط من ظلال فرح غامر ودهشة وفخر وخوف وتوتّر«تبارك الله ..صِرتَ رجلا » قالت وعانقتني بحرارة صاخبة حتّى خلتها تزهق روحي، ثمّ اشتعلت لهفة مفتونة بشلاّل أسئلتها وإطلالاتها المتكرّرة على أدراج السلّم. تسمّرنا على عتبة الباب لا هي دعتني إلى الدّخول، ولا أنا سمعت حسّ مخلوق منبعث من الدّاخل. تأملت وجهها الشّاحب السّمح فاحتوتني عيناها الجاحظتين قليلا، ونظراتها المتلألئة، وأسفل الوجنتين البارزتين، من غير عيب، حيث انتشرت بعض آثار خدوش وجروح قديمة. كانت شفتاها القرمزيتان نشيطتين في التعبير عن ابتهاجها برؤيتي واشتياقها لأمّي واستيائها من حصار الأصلع زوجها، وبدت مغتمّة من مصير خالي زهير الذي كلّما همّت بالحديث عنه إلاّ تلعثمت وهرب من شفتيها الكلام. وسألتها عن أطفالها فكتمت انفعالا غادرا وقالت«مشيئة الله آوليدي؛ يجعل من يشاء عقيما». تهنا، للحظات، في دروب ثرثرة عابرة قبل أن تحضنني بقوة، ثمّ تنظر إليّ مليّا وتهمس «إن كان الحبّ دافعك للبحث عن أمّك فلا تلمها ولو بنظرة، وإلاّ يكفيها ما هي عليه». سمعنا وطأ أقدام ثقيلة أدراج السّلالم السّفلى فازدادت عينا خالتي جحوظا، ودسّت في جيبي غرضا لم أجرؤ على تحسّسه في تلك اللّحظة، وكانت اضطربت بشدّة حتى خلتها تسقط مغشيّا عليها! اخترقنا، فجأة، جسدٌ ضخم ساطع الرّأس واختفى داخل البيت، همسَت بذعر ودموع الشّوق تجلّل عينيها«وصل البغل، سلّم على الحبيبة ولا تنسوني» ثم اختفت بدورها وأغلقت الباب في وجهي...

رأس البدين المدوّر يبعث في النّفس انطباعا قويّا بغبائه، لكن عويناته الصّغيرة الشّفافة تفضح ما يشعّ من نظراته الحادّة من ذكاء ومكر. دنا منّي حتى ظننته سيقبّلني، وفي أذني همس«سلامتك...! سوف نستضيفك بعد قليل في مديرية الأمن، حالتك الصحيّة تسمح بالتحقيق معك» ثمّ التحق بثنائيّ يقف على مقربة من نافذة الغرفة. لست قادرا على إدراك أيّ شيء بوضوح بعدُ؛ ثمّة وجود لألم فظيع يفتك بأسفل قفاي وزغللة قويّة تعبث برموشي وضباب شفّاف كثيف يحول بيني وبين تمثّل الأشياء بوضوح! كفّ ملوّنة الأظافر قدّرتُ أنها للممرّضة، قرّبَت كوب الماء إلى فمي فامتصّت شفتيّ اليابستين ما كان به...

ومسحَت ذكرى، بتقزّز وقرف، ما علق بشفتيها من لعابي بعد قبلة أولى فاشلة. ورفضت أن نكرّر التّجربة مرّة أخرى رغم إلحاحي في طلب ذلك «حتّى تكبر وتتعلّم»! قالت وهي تختفي في جوف المنقاص....

ووجدتني وحيدا، حزينا، ألوك مرارة الخيبة وأقلّب ورقة العنوان بين يديّ؛ من أين أبدأ رحلتي وإلى أين؟

هالني اقترابُ موكب اللّيل واستسلام المدينة لزمرة من المجانين واللّصوص والسّكارى والصّعاليك. لم أك جرّبت المبيت خارج بيتنا ولو لليلة واحدة، وها أنا اليوم أصبحتُ أنتمي إلى هذا العراء. اللّيل فراشي وغطائي ومأواي. وجه المدينة يشحب شيئا فشيئا، وأضواء ساطعة تنطفئ في وجداني واحدة بعد أخرى، وتخفّ حركة السيّارات ويخمد الضّجيج. وبقدر ما تخلو المدينة من دبيب خليقة النّهار بقدر ما تشرع قيعانها المعتّمة ودروبها الخلفية لكائنات اللّيل الماسخة وعبيد اللّقمة من الحرّاس ومداوِمات المصانع الغربيّة والمرافق العمومية وسائقي العربات وعمال الفنادق واللّصوص وبائعات الهوى وأصناف مقيتة من الأفّاقين والمخادعين والحشّاشين وآل لوط...

ولم يك زنيفح، حارس مدرستنا، يرى الله فكيف يرحم طفولتي وفتوّة لحمي وعظامي التي تُسحق تحت وطأة جسده القذر وركام الرّدم وصفائح المعدن الصّدئة وحواشي الخشب المكسور الحادّة وصراخي المرّ المكتوم بقبضة يده الخانقة ووعيد مسعود ومحسن ووقع أحجارهما الضّخمة الرّحيمة على سقف المخزن، ثمّ صياح المدير مرفأ نجاتي ومعبر دموعي المرتعبة. «احذروا المزاح مع زنيفح أو الاقتراب من مخزن المدرسة» يقول سي عبد الله أستاذ العربية. ويهمس مفضّل في أذني بخجل واضح «لو أمكننا الانتفاع ببعض ما في المخزن من خردة !» «وفي سوق «الغرسة الكبيرة» نظفر بخمسين درهما مقابل هيكل طاولة، ونصف المبلغ مقابل هيكل كرسيّ» يضعنا محسن في الصّورة وهو يغلي في مكانه. وكنتُ سمعت زنيفح يجهر بمكر أنّه يغادر مسكنه المجاور لمخزن المدرسة مساء كلّ جمعة ليزور أهله بقرية بنيونة، ولا يعود إلاّ مساء يوم الأحد ليشرف على عملية تنظيف مرافق المدرسة. رصدناه مرارا، من على السّور، يغازل شريفة المنظّفة السّمينة الشّقراء، التي تجاريه بفجورها وتغنّجها الفادحين؛ يطاردها عبر الممرّ الطّويل من فصل إلى فصل حتى يوقع بها في ركن معلوم فيهدأ روعهما بعد ذلك و يتوقّف الزّمن. وبعد حين ينبعث زنيفح من بوابة بناء الأقسام وهو يعقد حزام سرواله لاهثا متصبّبا عرقا، بينا تلتقط أسماعنا صوت شريفة وهي تردّد مقطوعات من أغانيها الماجنة. نروي هذه الواقعة بكلّ تفاصيلها للأستاذ عبد الله فيستشيط غضبا ويخفّ إلى مكتب المدير ونحن في عقبه. وتشهد المدرسة في المساء فوضى عارمة، تستدعي حضور مفتّش تعليم ممتاز وتسوية الخلاف وفق مسطرة السّتر من أجل المصلحة العامة:«استر ما ستر الله» هذا ما يتلفّظ به المفتش،ثم يضيف«هذه توصيات النيابة التعليمة، صونا لسمعة المؤسّسة ومصداقيتها وثقة المواطنين بها و..و..و...»...

وألوذ بحضن المحطّة لأنعم بالدّفء والأمان. آنس إلى لغط المسافرين وصياح بائعي السّجائر المقسّطة والحلويات الطحينية وتذاكر السّفر. ويلتقط سمعي صوتا ينادي: «ريحانة... ميتاسنور... طلميس..رموش العروس» فأطير إليه مردّدا «أنا..أنا ذاهب إلى رموش العروس». أركب وأشرع في التهام بعض الفطائر التي دستها خالتي في جيبي ظهر اليوم وبردت الآن.

ثمّة وجود لإحساس بالحرية وليد أخذ ينبجس من وجداني مفعما بالآمال والوعود، الدّنيا التي لم أظفر منها بغير حرمان وقهر وبهجة سطوح بيتنا العزيز تشرّع ذراعيها هذه المرّة في وجهي بكلّ سفور، ولكن هل تفعل لتحضنني وتشملني برعايتها أم لتسحق ضلوعي وتغدر بي؟!

وينتفض المحرّك محدثا صخبا عظيما مستفزّا. تنبعث سحابة دخان أسود كثيفة من مؤخّرة الحافلة حيث أجلس...ألمح ذراع مفضّل والخاتم ذو الفصّ الأخضر في أصغر أصابعه، وأبحث عن باقي الجسد فلا أميّز غير مضغ أطراف ومزق لحم وأثواب محجوبة ببخار دم وسحابات غبار ودخّان وهياكل سيّارات وأشلاء أدميّة متفحّمة وأنين وصراخ وعسكر وبنادق ورشّاشات يدويّة وبؤر ضوء حادّة وشلاّلات ماء منهمر من خراطيم مياه وأصوات آمرة منبعثة من مكبّرات صوت وألم خاطف صاخب على قفاي...

ويصيح آمر في الحضور أن اخلوا الغرفة.

***

بدأت أنتعش من جديد على صورة سّي علاّل يدفع أمّي المنتحبة برفق وأسى يجلّل نظراته. لماذا يهزم هذا الغريب أبي بما أشعر تجاهه من مودّة وعرفان عظيمين؟! ربّما بسبب أمّي؛ هي الآن في حضن آمن؛ لن تسلخ ما تبقّى من عمرها على أسرّة قذرة في إحدى قباب القوّادة لا طامو. لن يقهرها عرق العابرين من عبيد المتع والمكبوتين من الفلاّحين والموظّفين الصّغار والعسكر والفاكانسيّ والمنبوذين من المذمومين والهامشيين والشّواذ وذوي العاهات المثيرة للغثيان...

كنت بلغت جوف بلدة (رموش العروس)، وانشغلت أدقّق في عنوان الدرب المكتوب بخط رديء على صفيحة معدنيّة صدئة مثبتت على جدار متداعي. اعترض طريقي فتى في مقتبل العمر. متلفّعا في معطف جلديّ طويل مدبوغ انتشرت عليه ثقوب جمرات السّجائر. كان رأسه المكوّر الصّغير يطلّ من ياقة المعطف مثل فأر مذعور، أمّا الشّحوب والصّفرة حول عينين جاحظتين زائغتين وأنف أفطس بشع فقد بدت سمات ناطقة على أن صاحب مثل هذا الوجه لا يمكن أن يُنسى أبدا!...

«مزيود أنا..أنا مزيود..كلّهم يعرفونني..وأنا أعرفهم كلّهم ».

حاولت أن أتخلّص من عبثه بِنفحه درهما، لكنه رماها بعيدا وعرّى نفسه بعنف وفظاظة...تماما، كما تعرّيني الممرّضة السّمراء بمساعدة شرطيان مقيمان في غرفتي، وتأخذ في مسح عنقي وما تحت إبطي بمحلول مطهّر، قبل أن تلبسني قميصا سميكا تغري رائحة جِدّته بالغثيان...

تقيّأت على الفور وأنا أرى البثور المقيّحة الملوّنة التي تزيّن جلد مزيود من الصّدر إلى ما تحت الخصيتين «هذا ما سوف تفعله العاهرات بكم، سحرة الخيام يكتبون الأحجبة للمجذومين الذين يطؤون البغايا وما أن تضاجعوهن حتى يجري خبث العدوى في دمائكم ويبرؤوا منها!»...

وتحثّني المرضة على الاعتدال. وينكبّ الأنيق الوسيم عليّ ويهمس في أذني« اطمئن سي جعفر، سوف نكيّف كلّ الترسانة القانونية لصالحك..» ثمّ يسحب فتّة من ذراعها ويختفيان...

بدت لي فتّة، يومها، مغرية بفتنة لا تقهر! عينان واسعتان برموش سوداء كثيفة، شفتان مكتنزتان مبتلّتين تقطران إغراء. أنف رشيق يحرس، بكبرياء، شامة كحليّة تتوّج خدّها الأيمن. ثمّ متاهة سمرتها العسليّة ونهديها المرحين أسفل قميص شفّاف، وقدّها الميّاس الواعد ببهجة الإبحار... انتصبت فتّة ترقب العابرين بتحدّ وثقة بالنّفس كأنّها أميرة متوّجة، بينا أرسلت لي صويحباتها الشهيّات قبلات عبر الأثير من بوابة البيت الأزرق. كنت قطعتُ الدّرب الطّويل المذهل بمزيج حرج وخشية ولذّة مقنّعة. درب طويل تصطفّ على جانبيه دور قصديرية قصيرة ذات نوافذ صغيرة مستديرة على شكل كوّات ثقبت في حائط بعضها مصبوغ بالأزرق الفاتح؛ على أبواب الدّور تقف نساء كاسيات عاريات، وتضطجع أخريات مغرِيات بتنورات قصيرة على الرغم من قساوة شتاء هذا العام! عيون تغمز وأفواه تلوك العِلك أو تتثاءب وألسنة في استداراتها تعبث بشفاه مضرّجة حمرة، وبينا قنعت أكفّ بعضهن بإشارات موحية مخجلة، امتدّت أيادي الأخريات إلى مواقع منذرة من جسدي. تعثّرت، وأنا أتراجع إلى الخلف مضرّجا بخجلي، مخلّفا ورائي عاصفة من الضّحك الدّاعر...

وتضجّ الغرفة بضحك مسموع عندما أجرّب الوقوف على رجليّ مترنّحا، ينزاح عنّي الغطاء وأنا أقلّب بصري المبلبل في الحاضرين فتبدو لي الوجوه مشوّهة؛ ذات أحجام وأشكال وألوان كرنفالية؛ باروكات وأصباغ ملفتة. ولا يسعفني تخبّط المرضة، التي كانت تحشر قدماي في السّروال بوحشيّة ملحوظة، لأضحك بدوري، أو أتبيّن ملامحها الحقيقية، كنت فقط أشتمّ رائحة عطرها...

وغشيتني أنفاس فتّة المعطّرة برائحة النّعناع؛ أوشك لهاثها المنتظم اشتعالا يحيلني رمادا وهي تهمس في أذني بعد قضمة رحيمة«رحلتك معي ستكون مذهلة»! ثمّ تقدّمَت إلى داخل الماخور تسحبني من ياقة قميصي بينما كنت لا أزال أتأكّد من صحة الرّقم...

« 3- حجرة الفحص» أوّل ما يلتقط بصري بعد أن يفتحوا باب الغرفة وانقاد مكبّل اليدين مسحوبا من قبل شرطيّ قدّامي وآخر خلفي واثنين يطوّقان خصري من الجهتين. تتعثّر خطواتي عبر الممرّ الضيّق الطويل. دماغي تميل في الاتّجاهين بفعل دوار جارف يحتدّ مع إيقاع مشي عسكريّ حازم...تتوقّف قدماي، فجأة. يحطّ بصري على حذاء أسود أفطس. **«كلب...تعضّ يد الحاج التي أحسنت إليك؟!»** أرفع رأسي لأردّ على صاحب الصّوت، لكنّ كفّا فيليّة تهوي على الخدّ الشاحب بقوّة يتدرّج بفعلها حمرة ويزيغ على إثرها العقل والبصر...

حذاءً جلديّا آخر أُبصرُ الآن. أرفع رأسي لأتعرّف صاحبه... تلتقطني كفّا الطبيب؛ يعميني سيل ضوء رقيق ينبعث من قلم صغير بين أصابعه. أشيّعه وهو يختلي بالمخبر الوسيم على مقربة من عجوز؛ عجوز موشومة الذّقن تفترش الأرض أسفل نقّالة مرضى تضطجع عليها فتاة؛ فتاة يبدو من شحوبها وصفرتها أنها مسلولة. تتحرّك النقّالة عبر ممرّ المستشفى الممتد والعجوز في إثرها. يخترقها، مقبلا،الأشقر ذو الصّلعة؛ صلعة بارزة متلألئة؛ متلألئة بفعل أشعّة شّمس متساقطة من نوافذ الممرّ؛ نوافذ الممرّ الزّجاجية المهشّم معظمها، المعالج بعضها بصفحات الجرائد؛ نوافذ الممرّ الزجاجية حيث يعبر سرب خطاطيف؛ خطاطيف مرحة؛ خطاطيف طليقة مرحة. تدنو صلعة الأشقر؛ من شفتي الطبيب تدنو. يأتمن أذنه على كلمات ودخّان يكاد يحجب وجهه. يحرّك الأشقر صلعته ويأمر بالعودة. يتحرّكون بي راجعين القهقرى إلى الحجرة التي كنت مضطجعا بها. العسكري ببابها لا يزال؛ ينتفض من سنته مذعورا. يتذكّر خروجنا الرّسمي من الغرفة فيهدأ روعه ويقدّم فرض التحيّة العسكرية ويشرع الباب وينتظر. ما أن أتخطّى عتبة الحجرة حتى تلتصق بي الممرضة، وتشرع في إزاحة بعض ملابسي الخارجية...............

ينزلق بصري الحيّ، هذه المرّة، على السّهل البضّ المتمّش الممتدّ بين نهديها المتحدّيين فترتعش أطرافي ويرتفع إيقاع نبضي. تحاول فتّة أن تنزع عنّي ملابسي فأحُول بينها وبين ذلك. ألتهب ذهولا وحيرة من قيظ هذا المأوى المعتّم الغاصّ بالفتيات ورائحة الجسد. أستطيع، من موقعي، تبيّن سيقانهنّ العارية من خلال بوّابة الغرفة الواطئة التي أُسِرتُ بين جدرانها الرّطبة المبقّعة صفرة، السّيقان الملوّنة تروح وتجيء بآلية سريعة منتظمة، تحدث ضجّة مفتعلة بكعوب الشّباشب والنّعال البلاستيكية العالية، ضحكاتهنّ المصمّمة بإحكام، وخليط لهجاتهن العربيّة والبربريّة تؤلّف فيما بينها هويّة جنسية مخصوصة لمملكة اللذّة الوضيعة هذه، بكلّ ساكنيها ومرتاديها من المأسورات المقهورات والسجّانين والمكبوتين والضائعين والطّغاة. وشرعت فتّة تجرّب ما اكتسبت من خبرة إغراءٍ مثيرة للصّهد والغثيان.........

تنزلق الممرضة على صدري لتعيد أنبوب الإنعاش الطبيّ إلى مكانه من معصمي، تعدّل وضع رأسي وتدسّ ميزان الحرارة في فمي........... وترضع؛ ترضع فتّة إبهامي بلسانها القرمزيّ؛ تتنهّد وتتلوّى وتضغط بنهديها المكتنزين على ركبتي. ألوُذ، مصعوقا، بالكوّة المضيئة في قاع الحجرة الرّطبة التي لا تحوي غير سرير واطئ وبعض أكياس الرّمل والإسمنت وشراتيل ثوم وبصل ودلو أزرق كبير أسفل حنفيّة ماء صغيرة. أبادر بالسّؤال مضطربا وأنا أمسح ما علق بأصبعي من بقايا لعابها الدّافئ اللّزج المقزّز**«أبحث عن مليكة..مليكة جيجي».** تقبل نحوي فأغرق في عرق حيرتي**«ألم تعجبك فتّة؟ ألا ترى أني في سنّك تقريبا، أم أنك عنّين لا تلتذّ إلاّ في حضن المسنّات؟!»** وأنتصر لكرامتي بصوت مرتفع هذه المرّة**« مليكة قريبة لي».** ينقبض وجه فتّة ويشحب. يطلّ علينا، فجأة، كائن أغبر عجوز أتلف المسخ أسنانه وإحدى عينيه وترهّل جلده وختم الفجور والكدر على جبهته. لكن فتّة لا تمهل لا طامو ربّة الماخور حتى تفتح فمها الخرب؛**« هذا قريبُ مليكة»** تعلن وهي تتسلّل إلى الخارج مضطربة، ثمّ تضيف بسرعة قبل أن تغيب تماما في عتمة البيت**« انتظر حتى تفرغ من شغلها، سوف أخبرها**

بوجودك». تتفحّصني القوّادة بقحّة واثقة وتتنفّس زفر كلمات بصوتها الفحل الوضيع«من تكون لها؟». قلتُ والعار والغيظ ينهشان كبدي «**ابنها»**. قاءت ضحكة ساخرة داعرة، وأشاحت بخلقتها التّكراء مهلّلة «**ماكان ينقصنا؛ أن نصبح مركزا للتجمّع الأسري»**!.........

ويصرخ سمين جلف في وجهها«**لوكان قلبكِ على الوطن، حقّا، لما أنجبت هذا الإرهابيّ المجرم»**. ألفيتني عاجزا عن كبح انتحاب أمّي وتطييب جراح ذلّها«**مشيئة الله، والله ما في الدّنيا من هو أحنّ من ولدي؛ وها قد أشفق على نفسه من الموت وهدر دماء الأبرياء»**. ويغيظني صوت الفاسد وهو يدافع عن الوطن:«**كأنّه فعل ألّلا مليكة...من هدّد قتل** »...

وأسندت والدتي ظهرها على جدار غرفة السّطح السّاخن بمنزل سّي علال، وشرعت تحكي، ونحن تحت قيظ الشمس، عن تهديد لا طامو لهم ببطش الدّاهي وسنده من رجال المال والسّلطة والنّفوذ، وكيف أنّه ليس إلاّ حلقة صغيرة من حلقات التّعذيب التي سوف تبتذلهنّ إن فكّرن في الهرب من جحيم«رموش العروس»، أو تشريع أفواههنّ بالكلام في حضور الزّبائن القادمين من أمصار الدّنيا طلبا للّهو والمتعة. لقد اعتاد مزيود أن يحكي بحماس عن واقعة الصّحفي عيّاد، وهو يتلوّى ألما من مفعول المرهم الطبّي الذي تدهنه به فتّة، بعد أن احتاطت بوضع قناع واق على أنفها وحشر كفّيها في قفّازين بلاستيكيين سميكين كما أمر الطبيب:«**كنت أوّل من نبّه عيّاد إلى خطورة دروب رموش العروس تماما كما فعلت معك ومع غيرك، unfortunatly لم يأبه لكلامي، كان متحمّسا لمعرفة حقيقة هذه المدينة الدّاعرة ومن يقف خلف ازدهار تجارة البغاء بها. نلتقي بمقهى الزّهور لأسرد له ما أسمع وأعرف من وقائع وشخصيات يقال أن لها يدا في كلّ ما يحدث، وينقل هو كلامي في مسجّل بكف اليد حتى يتمكّن من تفريغه في البيت ومقارنة ما سمع منّي بما سمعه من الآخرين»** ثمّ يصرخ مزيود من الألم ويواصل كلامه وهو يعبث بشعر فتّة« **دع أمّك وهذه الغزالة تحكيان لك قصة فاطنة مع الصحفي عيّاد، تحكيان فقط كيف كان لقاؤهما، وكيف كانت النهاية، And Leave me the details»**..

***

لم يك ألم القفا والمفاصل يغادرني، ولا هذا الدّوار الذي يعلن عن نفسه بمجرّد ما أحرّك رأسي في اتجاه معيّن. بدأت أسعل بقوّة عندما كادت رائحة تبغ قويّة تكتم أنفاسي، وسمعت الشرطيّ الوسيم يزجر الآخر بهمس«**اخرج دخّن خارج الغرفة، سوف تخنق الرجل»** وينسحب الآخر وهو يعلّق بغيظ معلن«**ليختنق دين أمّه و يريحنا»**............

أبتلع قهري وأنا بين يدي الدّاهي ولاطامو وبعض أعوانهما. والدّاهي كائنٌ في الخمسينيات من عمره، ضخم الجثة بعينين خضراوين وأنف كبير مدبّب وشعر مرسل إلى أسفل الكتفين وشارب كثيف مسترسل على الجانبين أشبه ما يكون بأذني كلب دوبيرمان! كان، والزّمهرير في عنفوانه، يرتدي قميصا قصير الأكمام يكشف صدره المتين وما يغطّيه من شعر كثيف وعضلتي ذراعيه المفتولتين. يجلس إلى كنبة جلدية بوكالة عقارية أنشأها مباشرة بعد أن تمّ طرده من الجيش لكثرة مصائبه. تقع الوكالة في قاع درب هامشيّ لا تزوره أشعّة الشمس أبدا، ولا تُشرّع نوافذ بيوته القليلة الخرساء إلاّ في أوقات معلومة من النّهار أو بمناسبة زفاف أو ختان أو عزاء. على مقربة منه فوق الإسفلت الرخاميّ تضطجع لاطامو؛ تلهث مثل كلب أجرب وتحرّك رأسها البشع مؤمّنة على كلّ ما يقول«**من ينضمّ إلى عائلة رموش العروس لا يغادرها إلاّ إلى زنزانة أو قبر...» «وليس ثمّة غير نار تكوي جلود بنات النّاس»** يضيف مزيدود وهو يعترض طريقي إلى الدّور الزّرقاء القصيرة :

«مافيا my friend يديرها فاسدون وتجّار أثرياء ومهرّبون...تتصيّد المشرّدين من غلمان وقاصرات ومطلّقات وأرامل ومهاجرات، وماعلى (الفامبير Vampire) إلاّ أن يغرز نابيه في أعناق الضّحايا ويمصّ الدّماء».....

«الدّم...الدّم.. نزيف..» يصيح الشّرطي الوديع. وتُقبِل الممرضة السّمراء مرتعبة. تجتهد في أن تمنعني من الإمساك بأنفي، وبسرعة تشرع في تنشيف السّائل الأحمر الدّافئ المتدفّق بغزارة على ذقني وصدري...

«على الرّصيف تقودنا بقع دم طريّ إلى درب خلفيّ منعزل حيث يرتفع شخير إسماعيل، دركيّ «دوّار البارود»، الذي أُغرم بفتّة وحاول تهريبها وأمّك إلى خارج رموش العروس... كان عنقه مشرّعا بفعل طعنة غادرة والحمرة تصبغ محيّاه وزيّه المخزنيّ»...

وتخترق الشّوكة العنيدة مسام جلدي فأغوص في حمّام«مولاي غريب» غوصا هادئا عميقا. يسلمني مذاق مياهه الكبريتية الدّافئة إلى شعاب قصيّة من ذاتي!

كنت لا أزال أتتبّع رقصات فقّاعات كثيرة مغرية تحوم حولي عندما احتوتني، فجأة، بهجة أنوار ساطعة منبعثة من أعماق كون سحيق، احتضنتها راضيا مغمّض العينين....

غرفة الإنعاش

الخميس 23 يونيو 1994
16:30

جعفر..جعفر..هل تسمعني ؟..

أبلّغك تحيّة أمك وسي علاّل...

أنا هنا أنفّذ مشيئة الطبيب؛ يقول أنّك بحاجة إلى صوت ينعش ذاكرتك...تظنّ أمّك أنه أصبح من المفيد، الآن، أن تسمع صوتي. قالت إنك تحبّه...هل هذا صحيح ؟...

حسنا، لست هنا لأبكي؛ حذّرني الطبيب من ذلك. قال: احك له قدر ما تحتملين؛ وسوف أفعل؛ مااستطعت وتذكّرت. ولكن، ما يجدر بي أن أحكى في رحلة عمر أنهكها الهمّ والغمّ والأماني المجهضة ؟!.

أحاول أن أتمالك نفسي؛ يعزّ عليّ أن أراك طريح الفراش هكذا، في غيبوبتك العنيدة وصمتك المهيب. صحيح أن وجهك صفا وهدأ فسقطت أوراق أخرى من شجرة عمرك حتى يخالك الرائي صبيّا في العاشرة. لكنّني، عزيزي، لا يمكن أن أخطئ ما يتخلّل سواد شعرك من شيب، وكيف غارت عيناك البهيّتين وشحب محيّاك وتصدّعت الشّفتان...لا أحسبك تستسلم لليأس، سوف تغوص به بعيدا حيث تدفنه في أعماق سحيقة من النّسيان. وسأكون بقربك لأحكي لك وأحكي؛ أحداثا سعيدة، كما وصفها الطبيب: مبهجة...

***

يالله، تذكّر معي لحظة فتحت عينيك على أضواء المصابيح الملونة بسطوح بيت العريس مولاي السّلطان ؟! كنتَ غفوت، قليلا، عصر ذلك اليوم الربيعي بعد تدابير زفّ أمّك إلى سّي علاّل الصّافي سلطان عزّاب حارة(أولاد التهامي). تذكر كيف أصرّ أقرباء البقّال ومعارفه من المتعلّمين، وسكّان حيّه من الموظفين والعمّال ومخزنيي (دوار العسكر) أن يحتفوا به، ويقيموا عرسا لم تشهد الناحية من قبل مثيلا له؛ عرس يبعث الغيرة في أفئدة أقرانه من العزّاب. لقد بدت مبادرة السّكان العفوية كما لو كانت اتّفاقا سريّا على ردّ بعض جميل الرّجل؛ معظم نساء الحارة صديقات لسي علاّل، يلهجن بإسمه وحسن صنيعه صباح مساء، يكنّ له من فيض المودّة والتقدير ما يجعل من المستحيل أن تصيب بينهن من لا تعترف بشهامته في كلّ مناسبة ومحفل، خصوصا أرامل(دوار العسكر) ونساؤها اللّواتي كان رجالهن يغبن بالشهور، فيلذن بدكّان سي علاّل لجلب ما يحتجنه من مؤن ونفقات، واستشارته في مستجدّات الحياة ومصير الصبيان والبنات وشقاوتهم. وسي علال رجل سخيّ زاهد في مظاهر الحياة والزينة والترف، كما أن هوسه بالقراءة وإدمانه اقتناء الكتب جعل مكتبته تحتلّ أكبر غرفة في منزله الصغير، وتصبح «قبلة كوكبة من الأساتذة والطلبة الباحثين»كما ينعتهم سي علاّل بفخر واعتزاز ظاهرين . ثمّ بسمة الرضى العالقة أبدا بشفتيه المرتعشتين ذِكرا؛ تطغى على كلّ ما وسم دمامة خِلقته من كثافة حاجبيه المفرطة وضيق عينيه، وما أخذ يكتسح عنقه وذقنه وبين أصابعه من بقع برص لعين.

لم يتصوّر أحد من أصحاب سي علاّل ومعارفه أن يراه عريسا، يوما ما، وقد تخطّى عتبة الخمسين، وبدأ يعدّ نفسه لخريف الشيخوخة وعللها! لكنّ، سبحان الله، لقاؤه بأمّك مساء ليلة عاشوراء خلط أوراق حياته، وطوّح به في مسالك فتنة غريبة! أخرجته من جوف دكّانه الضيق الرّطب صوب مكتب المقدم ورئيس البلديّة ومأمون الجامع مستفسرا عن أصل الساكنة الجديدة وفصلها، مبشّرا بثواب الزّواج المتأخّر ومحاسنه ...

وكنتَ غارقا أيّامها في خضمّ مشاكل عملك بمعرض الأمان وصراعات نقابة العمّال عندما كان سي علاّل يتحيّن الفرص ليغازل أمّك ويصطحبنا في نزهات إلى «رياض العشّاق» تحكي له عن مأساة اقترانها بأبيك، وكيف أسهم مسلك خالك زهير في تقويض حياتكم...! لست على علم بالتفاصيل، جدّتك تعرف كلّ شيء؛ اغتمّت المسكينة كثيرا لفراق أمّك ...

جعفر...هل تسمعني ؟

تسمعني؛ قلبي يخبرني بذلك، وإن لم تفتح عينيك وتتحرّك في فراشك؛ تدرّبت على قراءة مشاعرك من مجرّد تحسّس جلد كفّك، حتّى لو كان باردا كما هو الآن! أعرف متى تكون صافي الذّهن، ومتى تؤرقك الأفكار وترهقك المشاغل، وكيف تحتويك حالة الجذب فتلوذ بخمّ الدجاج في جوف السطح حيث تعرض عن الدّنيا، وتتخلّص من لغو الخلق وضجيج المدينة. جنّتك هناك؛ حيث هديل الحمام الشجيّ وأسرار العصافير وبوحها البريء. لو تعلم كم نحن قلقون عليك! ولكن لا تغتمّ؛ سأبيع مصاغي، وأطرق كلّ باب حتّى ينحلّ عنك قيدك. لن أفارقك هذه المرّة مهما فعلت أمّك، حتى لو اضطررت إلى تقويض حياتها مع سي علاّل... لست أنا من سعى إليك؛ القدر وحده مسئول عن لمّ شملنا من جديد؛ هو من جمعنا والموت في عناق حميم كاد ينثر أشلاءنا على حلبة الرّقص وموائد السّمر... حتّى الموت خجل أن يفرّقنا، فكيف أسمح لها بذلك ؟!

***

أتأمل صفاء محيّاك وهدوء حالك فينتعش الأمل في صدري وتغوص روحي والغرفة في بهاء حياة مأمولة متخيّلة؛ لقمة نظيفة وغفوة هانئة وسقف آمن؟ ربّي عالم بأنّني فطرت على كراهية اللّيل منذ صغري! أبيت في حضن والدتي، وأحرص على ألا يخبو فتيل القنديل قبل أن يتيّهني النعاس في دهاليزه. وكانت أمّي إذا ما ركبت خبلها أخذت تنشد لغوا وتحكي صورا مبتورة وترّهات، والدّودة تعبث بعقلها وتطوّح بها في متاهات أفعال وأقوال!

أصبح كلّ من بالدار يتهيّب المبيت معها في غرفة واحدة، بمن فيهم أبي، أما أنا فكنت أفعل وكلّي ثقة في أنّها لن تؤذيني. كبرت ونحن نقضي السّاعات الطوال نغزل نتف الأخبار المتخيّلة المكرورة، نلوك حوادث لم تقع ونصنع من ملتبس الكلام وغريبه وقائع وحكايات. وفي ليلة عيد الأضحى ضحكنا بصخب متواصل كاد يقطع أنفاسنا. تمعن أمّي النظر إليّ بحنان مكشوف وتهمس مبتسمة **«كرهتكم، كرهت دياركم، لا بدّ أن أتزوّج وأزفّ إلى عريسي»!**

أغصّ بضحكي من كلامها وعيني على توهّج نور القنديل..وأستسلم للنعاس، على غير إرادة منّي، فيغرق بيتنا في عتمة لا أوّل لها ولا آخر!

كان أبي شحذ البلطة والسكاكين استعدادا لصبيحة العيد، ووضعها على حافة شبّاك غرفة الجدّة. وعندما انتفضت من سباتي، تملّكتني حالة ذعر من انتحاب أبي وصراخ إخوتي وضحكات أمّي الباكية التي لم أميّز من لغطها شيئا! اخترقت باب الغرفة فتعثّرت قدمي برجل أبي الذي حاول أن يضمّني إليه حتى لا أرى، ولكنّني انفلتّ من قبضته وسقطت على أشلاء جدّتي؛ كانت شعيرات رأسها الحمراء مجدولة بعروق متدفّقة دما متدلّية من عنقها المقطوع تماما، وامتد لسانها خارجا من بين فكّيها، بينما الحمرة اللّزجة تصبغ وشاحها الأبيض وما تبقى من وجهها. وبدت أمّي على مقربة من مكان سقوطي ملطخة، هي أيضا، بدم قان لا تزال تبتر أصابع كفٍّ معروقة مجعّدة وتصفّفها بانتظام جنب بعض وهي تكرّر أحجية الطفولة ضاحكة منتحبة**«هذا صبيّع عاقل، هذا زين الخواتم، هذا طويل وأحمق، هذا لاحس المرق، هذا دبوّس القمل..»**، وهكذا تغيب الفرحة خلف غيوم رمادية كثيفة!...

يكفي هذا؛ لا يجوز أن أخوض في سرد فواجع مماثلة؛ حذّرني الطبيب أكثر من مرّة**«احكي عمّا يبهج فقط»**. ولكن، ما أقلّ البهجة في حياتنا!

أنا أيضا أتوق إلى لحظة صفو أتخلّص فيها من أثقال الغمّ الذي ما فتأ يلاحقني، منذ أن غرّر بي مسعود ولد العيساويّة وزيّن في نفسي الحياة «برموش العروس»، وباعني لشبكة بطرونات الدّاهي ولا طامو وزبانيتها. ألوذ ببخار الحمّام ساعات

طوال أحكّ جلدي بحجر خشن من دون أن تغادر أنفي رائحة عرق كريهة لأجساد مدبوغة مقيتة. أتحاشى النّظر في المرآة إلى صدري الوخ، وأجزاء معلومة من جسدي حتى لا أرى لبّ هويّتي مجرّدا من الأصباغ...

ولكنّني تصالحت مع نفسي بعد أن خطفت منك أوّل قبلة حرّة وبمحض إرادتي. تحرّرت في حضنك من الخوف والتّيه والحقارة. كيف كنّا نختلس مفاتيح سيّ علال ونبيت ليلنا في الدكّان إلى ما بعد منتصف اللّيل؛ نرتعش خوفا من أن يفاجئنا أحدهم ونحن في عنفوان بهجتنا؟ هل تذكُر كم كنت رجلا؛ على عكس ما كنت تظن؟! أنا أيضا شعرت بأنني امرأة كاملة، لأوّل مرة !

ولكن أمّك كانت قاسية بشكل لا يصدّق ليلة افتضح أمرنا! أشفقَت عليك من ماض قذر يلاحقني...**« هو كلّ ما أملك في هذه الدنيا العاهرة»**، قالت واللّعاب يتطاير من طقم أسنانها الصناعيّة. بدت لي شنيعة، يومها، كلبة،كما لم أعهدها من قبل. واعترفتُ بذلّ **«لا حياة لي بعيدا عنكم، ماذا لو كنت ابنتك!»** لكنها أبت أن تصغي إليّ وحسمت الأمر بنفس فظاظة لاطامو ووقاحتها **«لستِ ابنتي»**. قلتُ والعناد يلهب رأسي **«أنسيت أننا تخرّجنا من مدرسة واحدة؟ ينبغي أن يعرف سي علاّل كلّ تفاصيل صحبتنا!»**، وارتمت الفاجرة تحت قدمي تنتحب وتتوسّل **«غضٌّ لا خبرة له بالحياة، غدا تخبو جمار صباه فيلفظك ويفضحني»** وأضاءت حجّتها عقلي وأطفأت أنوار جوانحي. طويت أمنية حياة عزيزة وخضت حيث وجدتني ليلتها...

***

آه! هل عدتُ إلى الغمّ من جديد، أم إنه هو من يقبل متخفّيا طيّ تفاصيل الذكريات التي لا نملك غيرها؟!

لعلّك تتساءل في إمارة غيبوبتك وصمتك المهيب عن مصير أبي، عن إخواني الذين لم يتجشموا أبدا عناء البحث عنّي... ولكن، أيّ فائدة ترجى من محاسبتهم. فأبي في رقّته، ولين جانبه، عطوفا، يستسلم لأهون مصائب الدّنيا وأتفهها! لم يك مستغربا أن يذبل بفعل قوّة الصّدمة وينهار. أن يغتمّ، وينطوي على نفسه بغرفة السّطح، تماما كما تفعل أنت، يطعم قططه فتات الخبز ويناجيها آناء اللّيل وأطراف النّهار.

أنا أيضا ذقت نصيبي من الغمّ واشتدّت حيرتي ما بين البقاء على أنقاض الذّكرى المفجعة أو الفرار على متن شاحنة مسعود إلى «رموش العروس» حيث تسود النّسوة وتتسلطن، وحيث فتنة أمسيات السّهر الباذخة، ووفرة المطعم الشهيّ والملبس الرّفيع والمركب المريح والحبّ الآمن الهانئ...

كنت ضقت ذرعا بأشغال البيت التي صارت تتناسل كالجراد، بمحظورات إخوتي وعراك زوجاتهن اللواتي يظهرن استنفارا دائما لخوض المعارك بالألسن السّليطة الحادة بدءا، ثمّ بالأيادي والرؤوس والأرجل، وأخيرا بما يتقاسمن من أدوات المطبخ!

أمّا الحياة في قريتنا المتخفّية أسفل«جبل عيّاش» المهيب، بدُورها الطينية الواطئة ومسالكها الضيّقة الموحلة دائما وقلّة ذكورها،كانت تبعث فينا نحن الفتيات اليافعات إحساسا قاهرا بانعدام الرّجاء، ومعاناة صامتة في مواجهة الكبت تطغى بتوغّل فصل الربيع.

كنّا نقصد الغابة جماعة بحجّة جمع الحطب، وما أن يستقرّ بنا المقام تحت أشجارها الباسقة الظليلة حتى تنتابنا مشاعر التحرّر من ظلال ذكورنا المقيتين فنشرع في سرد النّكت الماسخة والصّراخ الفادح والعناق والغناء والتعرّي؛ لم نكن نعبأ بأن تصل أصواتنا إلى حيث يقبع الرجال في مقهى القرية أو ساحة المدرسة أو عتبة الدكّان، هم أيضا جبلوا على احترام خصوصية حفلنا، حتّى المتلصّصين منهم! إذ لم يكن أحد يجرؤ على اعتراض ما نفعل هناك، حتّى لو صدح صوتنا بأغاني

العشق الماجنة التي كنا نحفظها عن شيخات واديدي الرّاقصات، أو خشعت أردافنا لإيقاعات ساحرة من كمان الشيخ السّحاسح، ودفوف مرافقيه الفحول :

"دُور بها يا شّيباني دُور بها   دُور بها تخدم عليك وعليها

نهيه،نهيه،إلى عمى خلّيه   طالع في العقبة و النّار شاعله فيه."

كانت خلوتنا طقسا مقدّسا لا يجوز لذكر الخوض فيه. وكنّا نشتمّ رائحة الفحل الغريب على بعد أميال، فنشرع في إعلام بعضنا بعضا بتعريض أجزاء المرايا المكسورة إلى أشعة الشّمس وتوجيهها إلى المكان المقبل منه، وهي نفس الحيلة التي ابتكرتها نعيمة ربيبةُ الحسّاني، طحّان قريتنا، لمعاكسة تلميذات المدرسة قبل أن نفضحها بها، وهي أمّ خائنة تستدرج عشيقها الأفّاق ولد عيشة كلّما غاب زوجها في بقاع الحرث البعيدة أو صاحبَ ركب العمال إلى حقول الحشِيش «بكتامة».

وتحلّ مصيبة افتضّاضي من قبل مسعود ليلة عرس حميدة بنت عمّي البكر. كانت ليلة صاخبة من شهر القيظ أنهكت أعصابي وشططت فيها خيالات الصبا الجامحة ونظرات الإغواء وصراخ الجسد الفتيّ...!

ابتدأت المطاردّة من خلف خيمة العريسين مرورا بحقول الذرة إلى مخدعنا السريّ ما بين الصخرة الضّخمة وطاحونة سّي عمر نائب الدوّار. كنت اتخذت قراري منذ اللّيلة السابقة بالاستسلام لمشيئته ومرافقته سرّا إلى «رموش العروس»، ولذلك لم أشأ أن أعانده، كما كنت أفعل دائما! لم أقاوم، هذه المرّة، رغبته المحمومة الحازمة في فكّ أزرار كسوتي ونزع تبّاني والسّفر في محيط جسدي حيثما شاء...كان كره القرية ومن فيها تمكّن منّي، وبدت حياتي، بعد رحيل والدي بسكتة دماغية وتفرّق إخواني ما بين مهاجر ومقامر ودجّال، أشبه ما تكون باحتضار ممتدّ تسيل عبره روحي قطرة قطرة...

لم يك يعنيني صدق مشاعر مسعود، ولا صحّة ما يدّعي بأنّه مذ وقعت عينه عليّ لم يعد يقوى على معاشرة خدّوج زوجته، وأنه كلما دنا منها إلاّ وارتسمت ملامح وجهي على محيّاها، بل إنه صار يخطئ في الاسم فيناديها باسمي: آفتّة؛ لم يكن يعنيني هذا في شيء، فأنا لم أحسّ، أبدا، بأيّ شعور آمن نحو مسعود، تكفيني التفاتة مباغتة إلى عينيه الزرقاوين ونظراته المتوتّرة النزقة شبقا لأدرك أنّ في كلامه غير قليل من البهتان، وأنه يدور ويلفّ لينهل من معين طراوتي بعد أن جفّ عود زوجته الولود، وعفّ جلدها بفعل قساوة شمس الحقول وخدمة الفئران التي دأبت على تفريخها، بانتظام، عاما بعد عام!

ما كان يربطني بمسعود هو عشق الرّحلة المشتهاة إلى مملكة النّسوة، هذا الفضاء الموعود ببهجة حياة مختلفة رفقة مخلوقات أخرى وتحت سماء مثقلة بالنّجوم...

اعذرني حبيبي. لن تسمع منّي هذا الكلام في صحوك أبدا، حتّى لو أخبرَتك أمّك وأقبلت تواجهني. لن أعترف أبدا. لن أفعل لأنني لم أك فتّة أيامها؛ مخلوقا ضائعا، كنت، يرزح تحت قهر اليتم والحرمان، كان التّيه أميرا متوّجا على حياتي؛ لا أعرف غيره، ولا أرى أو أنطق أو أتنفّس إلاّ إيّاه...

وكانت «رموش العروس» جنّة مأمولة تستحقّ أكثر من تضحية!

***

لم أقو على كبح جموح فرحتي ونحن نشرف عليها رابضة على سهل خصب ممتدّ بين جبلين غافيين من فرط حرارة منتصف تموز. بدوت قرويّة بلهاء تتشبّث بذراع مسعود الجالس قدّامي على مقعد الحافلة؛ أصيح ملأ فيّ:**«ها هي..ها هي.. وصلنا.. هي هذه، أليست هي؟!»**. ويقاوم مسعود هيجاني بقلق محاولا أن يتّقي، قدر الإمكان، نظرات استطلاع موجّهة من قبل عيون متلصّصة. ينجح، أخيرا، في أن يهدئ من روعي إلى حين مغادرتنا الحافلة وانطلاقنا صوب دروب المدينة.

تلك كانت أوّل مرّة في حياتي أرى فيها متاهات دروب تفضي إلى ساحات شعبية أحيانا، وأحيانا أخرى لا تفضي إلى شيء، ودورا متراصة متلاصقة لا يفصلها عن بعضها بعض خنادق ولا أسوار قصبية ولا أحراش. واستجابت مصاريني، لمّا تذكّرت وضع إخوتي في القرية عندما يتأكّد نبأ هروبي، وتوتّرت، على الفور، برهبة جعلتني أستحثّ خطى مسعود في اتجاه«فندق سوان» أو «فندق سيوانا» كما درج زبناؤه العرب على تسميته.

***

كان المأوى بمنزلة مركز استقبال آمن لكلّ التائهين القادمين من ربوع البلد السّعيد: زنوج نازحون ينوون عبور المضيق إلى أوروبا، مجرمون فارّون من أحكام قضائية، زوجات هاربات من جحيم أزواجهن، صِبية ذاقوا ذرعا بقسوة آباء غاضبين أوجشع حِرفيين قذرين ونزواتهم، مطلّقات ساخطات على عالم الذّكورة، ومبتذلات يطمحن إلى اكتساب حظوة اجتماعية عن طريق التحوّل إلى عاهرات فخمات بيدهنّ الحلّ والعِقد...!

الطّابق الأسفل من الفندق يبدو على شكل مؤسّسة محترمة، بمكتب استقبال أنيق مواجه للباب، تجلس إليه فتاة حدباء في حوالي السّادسة عشر من عمرها تضع على عينيها نظارات طبية ذات زجاج سميك، وتجمع شعرها الخشن إلى الخلف بحزام برتقاليّ مفتول، تكاد لا ترفع رأسها عن (مجلة فتيات اليوم) التي تبيت وتمسي تقلّب صفحات أعدادها المكدسة على مقربة منها.

صوفيا، وهذا اسمها، وحيدة سيوانا من سائح فرنسيّ اسمه بيير كوبي، أحد العباقرة الاقتصاديين الذين قرّروا ابتياع دور سكنية عتيقة بالمدينة القديمة وتحويلها إلى فنادق سياحية تقدّم أطباق المتع الشهيّة لزبائنها القذرين من شواذ البلد وأقطار الدّنيا قاطبة. وفي عهد بيير كوبي، المعروف بين ساكنة مدينة «رموش العروس»بلقب النصراني، شهد«فندق سيوانا»ازدهارا لا مثيل له، وكان يتميّز بعروضه الرّاقصة التي تنقل الزّبون إلى أجواء ألف ليلة وليلة، فضلا عن طبقه المجانيّ، المخصّص لأرفع زبناء الفندق من أثرياء العالم ومشاهيره: وصلة أوليّة صحبة فرخ طريّ حمّرت جلده أشعّة الشّمس! وقد بلغ صدى هذا العرض المغري عبيد الجنس في مشارق الأرض ومغاربها فأخذوا يتقاطرون على المدينة أفرادا وزرافات...

كان بيير كوبي أوّل من فاوض بخصوص ضمان حراسة الفندق ومستخدميه وزبائنه مقابل أجرة معقولة خاصة بحرّاس الفندق تسلّم نهاية كلّ شهر، بمعزل عن الضريبة السّنوية طبعا، وذلك مقابل ترخيص قانونيّ لإقامة الحفلات السّاهرة واستقدام الأجواق والرّاقصات والبهلوانات والمذمومين من ذوي العاهات المقزّزة والأقزام!

ولم يك بيير يتردّد في الاختلاط بالناس والجلوس إلى المقاهي الشعبية للمدينة وحضور حفلات أعيان البلد وعزوماتهم التي لا تتوقّف على طول العام، فضلا عن سهره مع نخبة معيّنة من رجال السلطة. كان شخصية نشيطة وشعبيّة، لا يُرى إلاّ وهو يمرق بسيّارته في اتجاه منزل فلان أوعلان. غير أن كوبي الذي يبدو للناس شخصية ذكيّة ماكرة على استعداد دائم لاقتراف كلّ جرم في سبيل نجاح تجارته وكسب المال، لم يكن بحسب المقربين من عالم الداهي ولا طامو وبناتها إلاّ حملا وديعا؛ عبدا ذليلا خاضعا لسلطة نعيمة سيوانا زوجته ومديرة أعماله.

أما نزيهة قرقوبي، الله يتوب عليها، بمجرّد ما التحقت بهم، في ماخور لاطامو، ركبتها وساوس بخصوص ما تضمر نظرات الرجل الغادرة من مكر خفيّ، وما يوحي به سلوكه من انصياع أعمى لأوامر سيوانا وقراراتها، وكذا افتعاله الغباء والبله إثر كلّ نقاش يدور وسط الجماعة حول أوضاع البلاد والعباد «كان تقبُّله إهانات زوجته المتكرّرة أمام الناس بابتسامة قصيرة وإطراق غريب يبعث في نفسي شكوكا لا حدود لها، لذلك لم أصدّق أبدا أن تكون أعمال سحرة الخيام جرت في دماء النصرانيّ ودلّت لسانه وأنبتت في مؤخّرته ذيلا! » هذا كلام نزيهة. وحين كشفت للاّ طامو عن شكوكها

بخصوص هويّة الرجل وتدابيره غير المعلنة، أخذت القذرة تشيد بفطنة سيوانا، وكيف أفلحت في ردع ثور سمين بحجم بيير كوبي، وسفّهت غباء نزيهة واعتبرت الخوض في موضوع مفلس«كهذا، لا يمكن أن ينزّ إلاّ من جوف حقود غيور...».

القوّادة، أنا نفسي لم أحظ منها بكلمة طيّبة أبدا.

وهكذا، بقي النّاس في (رموش العروس) يرددون لسنوات طويلة أسطورة سيوانا، خريجة معهد لاطامو لفنون الحبّ، وكيف أنّها سحرت الثريّ الفرنسي بخبرتها في إحدى غرف المعهد المعتّمة، إذ لم تك تتورّع عن فعل أيّ شيء يذهله ويضمن عودته إليها باستمرار، واستفساره الدائم عنها. وكانت«سوان» الكلمة العربية الوحيدة التي ينطقها كوبي بمجرّد ما تطأ قدماه عتبة الماخور! حتّى أن الفتيات أصبحن يطلقن هذا الاسم على نعيمة كلّما رغبن في ممازحتها أو السّخرية من بلاهة الفرنسي...

لكن لغز بيير كوبي، يا عزيزي جعفر، لم يحلّ بمجرّد ارتباطه بسيوانا وإنجاب صوفيا وحسب، ولابتطوّر تجارتهما وازدهار «فندق سوان»، وتحوّله إلى وسيط سياحيّ مصنّف دوليا لاستيراد عبيد المتعة وتصدير صنّاعها من الجنسين ومن كلّ الأعمار..، وإنما ازدادت شخصيته غموضا عندما وضعت سيوانا ليلة رأس السنة الميلادية بلاغا باختفائه بمركز أمن «رموش العروس»، وتمّ رصد سيّارته، بعد ذلك بساعات، على مقربة من مدخل«وادي الحنش» وبها سترته ومحفظة أوراقه وبعض أغراضه الشّخصية. وقد قام رجال الضّفادع البحرية، يوما، بغطسات بحث متكرّرة، على طول الواجهة النّهرية، طمعا في العثور على جثّته ولكن دون جدوى.

ظلّ لغز اختفاء الرّجل طيّ النّسيان إلى أن شاع خبر رؤيته في حراسة رئيس دولة أجنبية من خلال نشرة أخبار قناة الجزيرة الفضائية. ولا يزال حمايدة العوينة، حلاّق «رموش العروس» الشّهير وأحد أوفياء ماخور لا طامو، يقسم بالأيمان الغليظة أن من رآه في حراسة الرئيس الأجنبيّ، لم يكن إلاّ بيير كوبي بهيأته الضّخمة ورأسه الصّغيرة ونظّارته الشّمسية المميّزة!

***

صادف وصولنا إلى «فندق سيوانا» استنفارا أمنيّا كبيرا عرفته المنطقة الشّمالية. وكان شاع نبأ تسرّب كميات أسلحة ضخمة عبر الحدود من قبل عناصر مدرّبة تنوي تفجير مرافق سياحية واقتصادية مهمّة، وأصغينا بذهول من خلال راديو الحافلة إلى تصريح المذيع بأنّ « عناصر إرهابية مدعومة من قبل جهات أجنبيّة معادية، تسلّلت من حدودنا الجنوبية الشرقيّة مدجّجة بسلاح أوتوماتيكيّ متطوّر وقنابل موقوتة لتنفّذ مخطّطات تخريبية، وأنها تنوي استهداف الفنادق والمراقص والحانات والمنتجعات الصيفية وبعض القرى السّياحية طمعا في الإضرار بالاقتصاد الوطني، والعبث بأمن المواطنين وطمأنينتهم....». لذلك اختصرنا الطّريق إلى ساحة «فندق سيوانا» عبر درب ضيّق معتّم مثل شريان يفضي إلى دروب المدينة القديمة، وما أن وطأت أقدامنا فضاء السّاحة حتّى أذهلتنا كثافة الحضور العسكريّ المدجّج بالأسلحة الحربية، وانطلقت عربتا جيب عسكريتين لتحول بيننا وبين مدخل الفندق. كان تبادر إلى سمعنا صوت من داخل إحداهما يعلن، من خلال مكبّر الصّوت، «انتباه، قف، حاجز عسكري» ولكنّنا لم ننتبه إلى أنه يقصدنا. وما أن رأيت العسكر يقفزون من العربة وينتشرون ليطوّقوننا حتى اختطفتني إغماءة مفاجأة استفقت بعدها مستلقية على إحدى كنبات الفندق وصوفيا فوق رأسي تقرأ مجلة « فتيات اليوم»!

***

لم أر مسعود، بعد ذلك. وفي غمرة حياتي المذهلة الجديدة لم أكلّف نفسي عناء السّؤال عنه! شملتني فتيات الفندق اللّواتي في سنّي برعاية تامّة؛ تعلّمت منهنّ أصول (الصّنعة) بمزيج من مشاعر الإغراء والخزي والنّدم... ولكنّ بدت لي العودة إلى حياتي الماضية أمرا مستحيلا!

أضحى انغماسي في العمل، منذ ذلك اليوم، كلّ همّي؛ أهرب من ظلال ذكريات بئيسة عزيزة إلى مستقبل غير مميّز القسمات، خليط من بهجة طفوليّة مكدّرة، وأطياف أحلام ورديّة تحضر وتغيب، وإيمان راسخ بأنّ هذا الطريق لا بد أن ينتهي إلى محطة استراحة، إلى حياة أخرى مختلفة، لا يهمّ كيف هي، لكنّني سوف أشكّلها بأناملي المصبوغة عارا وبكبريائي الجريح لحظة بلحظة، من دون أن يفتر أملي أو تضجر روحي...آه جعفر، لو تدري كم كنت أثق بالمستقبل؟!

قضيت عامين ساحرين في«فندق سيوانا» ذقت فيهما من صنوف النّعم ما لم أكن أفقه له اسما، ورفلت داخل أرفع القفاطين والمعاطف وأطقم النّوم بهيجة الألوان، وتزيّنت بأحدث منتجات أزياء«لولا ريفيرا» و«نيكيتا» و«هوبز» ...تعطّرت بعبير «فيني» النّاعم وروائح «سمارا»، لم أك أحسب أن هذا الفردوس الأرضيّ المبهر ليس إلاّ مكافأة مجزية على ما سوف تعرفه حياتي، بعد ذلك، من رقّ وامتهان في مستنقعات الدّاهي ولا طامو وقبابهما الرّطبة...

***

افتح عينيك، حبيبي، ولو للحظة...قل شيئا...صمتك المهيب يحفر في جوفي أخاديد الألم أكثر ممّا يفعل التّفكير في الغد، في الآتي... كم تنأى المسافات بيني وبينك؛ كلّما قلت: ها قد ولّى زمن التّيه وأشرقت شمس السعادة تضيئ دروب حياتي المعتّمة إلاّ وامتدّ بيني وبينك قفر شاسع موحش لا حول لجسدينا الهزيلين على مقاومته ولا قوّة. حتّى لو ابتعدت أمّك وباركت شملنا الملموم؛ يحول بيننا، الآن، خصمان عنيدان: علّتك والقانون؛ وإن أفلتنا من الأولى كان الثّاني لنا بالمرصاد. ولكنّي ألم تقل دائما« من ييأس لا يستحقّ الحياة»، ألم يكن هذا يقينك قبل أن تنهار؟!

سوف أظلّ أردّد أغنيتنا مهما أدمتنا أشواك القهر والتّيه، حتّى لو جارت علينا الدّنيا مرّة أخرى. دع صوتي يصدح لك بالغناء:

«عصفور أعزل،
يقاوم ريح الخريف...
شرّع أحضانك بالحبّ تدفّيه...
يرجع له صوته،
يغنّي،
تسمعيه...
تدمع عينيك تسأليه:
كلّ هذا الحزن فين تخبّيه!
لا تتعجّبي،
بريشي وتغريدي،
بطرب السّامع أشتريه!».

صرت أردّد أغنيتك مذ جرى عشقك في شغاف قلبي وبدّد ما كنت أكنّه من كراهية الرّجال؛ بشبقهم ونظراتهم الزائغة، بتلك العبارات الحائرة العارية التي يسترون بها وجودهم على فراش امرأة لا يعرفونها! بتبريرات ذميمة يزيّنون بها خياناتهم لزوجاتهم في الغالب، وكبتهم المتخفّي تحت أقنعة صفيقة من الهدوء والوسامة والوقار...ولكن، ما أن يغرقوا في وحل اللذّة

حتى تتّقد العيون وتزيغ النظرات ليفيض ما يضطرم بأجسادهم من أنانية وقسوة، وليبدون في لهاث الذّروة وتقلّص الجسد أشبه بكلاب صيد مسعورة إثر انقضاضها المحموم على فريسة جريحة!

أمّا أنت؛ كانت عيناك مغمّضتين كبتول خجول، وبدت أنفاسك المتوتّرة في خفوت محتشم تجلّل صمت أولى اللّيالي العذرية التي جمعتنا بغرفة سطح سي علاّل، ثمّ بدكّانه بعد ذلك كثيرا. ولأنّني أحببتك، فقد خنقت في نفسي كراهية الرجال، وتطهّرت عذراء بصفاء روحك ونقاوة جسدك...ولكن الحياة تمكر وتمكر و تمكر، ولا تملّ المكر أبدا، ها أصابعها الماسخة تعود، من جديد، لتمارس لعبتها القاسية في التّشريد والتّعذيب والنّأي، ها هي تطفئ شعلة كيانك المتوهّج فتوّة وملاحة وعنفوان صبا، تبدّد توق روحي ورسوم أمنياتي...

أعدك، بأعزّ ما تملك وأملك؛ لن أيأس أبدا في إعادة بناء كلّ ما انهار، سنجتاز هذه المحنة بمجرّد ما تفتح عينيك وتنطق اسمي... كنت تمزح وتقول أنّ اسمي أجمل منّي، وكنت أردّ عليك وأقول: وأنت أرقّ من اسمك، فتنزعج من هذا الوصف وتعلّق: لا أحبّ أن تنعتيني بمبرّرات الوصوليين! وتقصد أعضاء مكتب النّقابة الذين يعتبرون تعاطفك المفرط مع العمّال علامة ضعف لا يليق بنقابيّ محنّك، ولا يجوز أن يتحكّم في قرارات النّقابة، ولا في اتّفاقاتها غير المعلنة مع السّلطة وأرباب العمل، ولكنّك قلتَ... يخيّل إليّ أنّك قلت ...وكأنّك حرّكت عينيك قليلا ! ألم تفعل؟! مجرّد خيال، إذن، ليس إلاّ... لا، ليس خيالا؛ وشفتاك أيضا تتحرّكان..آالله، إنك تتقلّب بحرج تحت غطائك... ها أنت تحاول أن تفتح عينيك بصعوبة...دكتور...دكتور..آلممرضة..آسيدي ... جعفر يعود... جعفر يستفيق..!

بيت سي علاّل
السبت 25 يونيو 1994
19:32

- الحمد لله؛ سمحوا لك بزيارته ساعة بأكملها.
- تجديدُ الحمد لله واجب أيضا؛ أعتق وحيدي من غيبوبته الغادرة القاهرة. عجبا! كيف يجرى اليأس في العروق مجرى الدّم، ويجثم الهمّ جبلا على صدري فيطفأ أنوار البهجة واحدا واحدا «كأنّك يا طارق ما غزوت ولا عبرت!». كما لو أنّ الشّقاء مبتدى الصحيفة ومنتهاها، أو كأنه الحِبر الدّامي الذي كُتبت به فلا فكاك لنا منه إلاّ إلى حفرة قبر...
- «تعب كلّها الحياة ».
- الحمد لله، أتأمّل وجهه المليح وأصلّي على النبيّ!
- يكبر الفَرخ ويحنّ إلى صدر أمّه...
- عودة صاخبة مدمّرة؛ حطمت كياني وشقّت روحي نصفين..
-عودة غير منتظرة.
-كنت تخلّصت على التوّ من قذارة جسد مترهّل عندما أطلّ رأس فتّة من بين ستائر الغرفة وأخبرتني بزيارة قريب!
- حرتِ في تخمين من يكون؟!
- فُتنت... رشقت وجهي بالماء البارد . صفّفت شعري . ارتديت جلبابي الفضفاض واتجهت نحو الغرفة...
- كما لو تتّجهين إلى مقصلة!
-على مقربة من باب الغرفة الواطئة كانت لا طامو تفتّش ملامحي بوسواسها المعهود وتغرز سهام نظراتها في عينيّ.
- لعلّها استفسرتك عن الزّائر؟
- لم أكْ لأسمع فحيح كلامها الدّاعر المنذر. اقتحمت الغرفة بشجاعة فوجدتني قبالته!
-فتى يافع، مفاجأة مذهلة!
- احترت في شخصه، حسبته للحظات قصيرة مبعوثا من قِبل مطلّقي أو من قِبل أختي السّعدية.
- قد تكوني توجّستِ شرّا من هذه الزّيارة.
-لم أتمالك نفسي. لذت بطرف السرير، وأنا أسأل عن أحوال أختي وفلذة كبدي.
- ونطق: أنا ابنك جعفر!
- انفجرت شظايا كلماته في وجهي فابتعدت عن السّرير الوضيع مقهورة منتحبة...!
- يسمّونه موقف تراجيديّ! لو شاهدنا مثل هذا في مسلسل تلفزيونيّ لقلنا: مبالغة مكشوفة...
- ولكن، سبحان الله!
- كبر وأصبح رجلا .
- ليس ذاك؛ أقصد: بقدر ما كانت زيارته عاصفة مدمّرة بقدر ما اتّشحت باليمن والبركات.
- شعرتِ بأن لك أهلا.
- شعور حرّرني، قليلا، من كابوس لا طامو وقذارة عالمها.
- كما لو أنّك انبعثت من أعماق جحيم !
- اختفت، فجأة، نذر الشّؤم التي كانت تظلّل صحوتي ومنامي؟ تطهّر كياني من زفر رائحة قذرة طالما أزكمت أنفي حتى وأنا تحت رشّاش الحمّام أو مبلّلة بطيب العطر ؟
- جحيم النّفس اللوّامة أهون.
- ربّي يعلم أنّني لم أختر هذا المصير بمحض إرادتي.

-لا ينبغي أن تشعري بالذّنب.

-أنا لا أشعر بأيّ ذنب بخصوص ما فات؛ ولكنّها غصّة جاهل؛ قليل من العلم كان كافيا لأخبر مقالب الحياة وطباع الناس، وأنجو من فخاخ الدّنيا ومصائبها ؟

- لا نجاة من المكتوب إلاّ إليه!

- عندما أدانني والد جعفر ونفّذ حكمه لم يك أمامي غير بيت أختي السّعدية. ثلاثة أشقاء، كنّا، من صلب الحاج عبد القادر جيجي أمين خرّازين «تربيعة الجوزة»: أخي زهير البكر وأنا وأختي السّعدية. وأنت تعلم كيف أنّ زهير...

- لا فائدة من تكرار الحكاية، اتركي العلبة السوداء مغلقة على أسرارها.

- علبتي ملكك، عزيزي علاّل؛ لن أرتاح حتى أتعرّى أمامك، مرة بعد أخرى، متطهّرة من وحل رحلتي المهينة.

- احك، إذن، ما شئت. قد يخفّف عنك ذلك بعضا من همّك المكتوم.

- قلت: إنّ أخي زهير فارقنا بعد وفاة والدتي رحمها الله؛ لم يعد يطيق البيت من فرط ما كان يكنه لها من معزّة. يقضي سحابة نهاره يطرز الدّروب والطّرقات، ويزور الأسواق والمتاجر خشية من أن يعود إلى البيت فتستقبله حقيقة غيابها.

- عجبا! هذا نفس ما قاسيته بعد وفاة الوالدة، تغمّدها الله برحمته. لم أك أطيق البيت؛ كلّ ما فيه كان يذكّرني بها!

- لم يستسلم أخي لحقيقة رحيلها الأبديّ إلاّ بعد فترة طويلة، غير أنّ عادة السّهر خارج البيت تمكنت منه حتّى صار ليله يدرك نهاره، فلا يلوح خياله من رأس الدّرب إلاّ مع دقائق الفجر الأولى، أو بعد أن ينبلج الصّباح!

- ما من شيء ينهك الروح والبدن بقدر ما يفعل السّهر!

- لم يقبل والدي هذه العادة المثيرة للشبهات، وهو المشهود له بالورع و الحزم «لا يمكن أن نحتمل دخولك علينا في منتصف اللّيل، للبيت حرمة ينبغي أن تُصان»، لكنّ زهير لم يعبأ بإنذارات والدي الحاج الذي تغيّرت بداخله أشياء كثيرة بعد رحيل أمّي، توأم روحه، واضطلاعه بأعباء شاب مراهق متهوّر، وفتاتين يافعتين، وحرفة شاقة شحيحة العطاء.

-كان ينوء بحمل ثقيل!

-واستهان زهير بتحذيرات والدي الحاج فوجد نفسه ذات ليلة في الشّارع وصوت ثائر يزلزل كيانه « عد إلى وكر حشّاشيك، والله لن تطأ قدمك عتبة بيتي حتى أخرج منه على نعش».

- تلك هي عتبة الضّياع .

-كان الجيران وبعض الأقارب توسّطوا لزهير لدى والدي الحاج، في مرّة سابقة، فانصاع إرضاء لهم، ثمّ إنهم حاولوا من جديد، هذه المرّة أيضا، فرفض أن يستقبلهم.

- طفح كيله.

- هكذا خرج زهير من حياتنا، كما خرجنا من حياته، وكلّ ما سمعناه عنه بعد ذلك لم يك يبعث فينا شوقا إلى لقائه ولا حنينا إليه؛ على العكس، أصبح نفورنا منه بلا حدود!

- كيف لا، وقد فتحت عليكم سيرته المخزية جحيم لعنة لا تطاق؟

-لا سامحه الله، حطّم حياتي وحياة أختي السعديّة؛ فما بلغ والدي من أخبار انحلال زهير وابتذاله من قبلِ تجّار «سوق باب النّوادر» عجّل بسقطته المشهورة في«باحة الوسعة» ليلة السّابع من رمضان.

- خبر كالصّاعقة؛ صعب الاحتمال في مجتمع مثل مجتمعنا!

- من يومها وأبو جعفر يرميني بنظرات متوجّسة خبيثة ملؤها الحقد والاتهّام، بل أصبح يتفنّن في مناداتي بالألقاب الدّاعرة وهو يلمّح إلى سيرة أخي.

- ردّ فعل طبيعي، هو نفسه، ما أن تطأ قدمه عتبة الدّرب حتّى تلهج بنعته الألسن:" ها نسيب الشطّاح ".

- حتّى أخته الكريهة تناوبت معه على إيذائي ووصفي بأقذر النّعوت وأحطّها. حرتُ في سبل مقاومة هذا العداء الذي أخذ يستعر في صدر طليقي وشقيقته وبعض معارفنا وجيراننا بدون ذنب اقترفته! ثمّ إنّي تنازلت مكرهة عن كلّ حقوقي في ضرورات الحياة ومباهجها. وكان والدي الحاج فارق الحياة بعد سقطته ببضع سنوات فمنعني الظّالم من حضور مراسم الجنازة والتأبين على الرّغم من سخط الجدّة واحتجاجها العظيمين يومها، وسأشهد غدا، بين يدي الله، أنها امتنعت عن مخاطبته والجلوس في حضرته، ولم ترقّ لأسفه واعتذاره حتّى توسّلت إليها وألحت؛ كانت الحبيبة تعزّنا كثيرا؛ أنا وولدي!

- حكيتِ لي كيف شيّعتِ جنازة الوالد من سطوح البيت .

- وفي عتمة المدخل كنت أستقبل زيارات أختي الخاطفة على عجل...

- حتّى السّجناء يسمحون لهم بلقاء ذويهم!

- وكلّ تلك التّدابير لم تقو على تبديد الكراهية التي تنزّ من جوفه تجاهي؛ كراهية أخذت تشتدّ بتجدّد أخبار زهير الفاضحة، الذي لم يقتصر على معاشرة الأوغاد، بل دخل عالم الغواية من بابه الواسع بتعاقده مع «موكب ملاهي السّاحل» يؤدّي وصلات راقصة في خيمة مستقلّة، وهو يتلوّى داخل كسوة الرّقص الخليعة، ويلبس باروكة شقراء، ويطلي وجهه الدّاعر وبنانه بطلاء الزّينة والأصباغ المختلفة، ويحوّر اسمه ليظفر بلقب فنيّ ينادونه به : زهيرة!

- من شرّ البلية ما يضحك!

- ضاقت بي الدنيا بسبب مكر زوجي وشقيقته. كنت موثّقة الإرادة وأنا أرقبهما يحكمان محاصرتي برميهما الباطل؛ من يصدّق علاقتي بميّي بائع قنّينات زجاج، أبله، أحول، تستطيع أن تشمّ رائحة قذارته على بعد أميال ؟!

- تدبير مخطّط للتخلّص منك.

-واعترف الشّيطان، والله اعترف صراحة وهو يقودني بأدب وقح إلى «حارة النيّارين» حيث تسكن أختي السعديّة:«لا حياة لنا مع بعض قبل أن نتخلّص من عار أخيك». ولكن،آ عباد الله، ما ذنبي أنا ؟!

- هل أنت من مهّد له سبيل التخنّث ودفع به إلى مصيره المخزي ؟!

- ألم يكفهم أنّي رضيت بالبيت سجنا لا أبرحه صيفا ولا شتاء، حتّى أنّني لم أحضر جنازة والدي الحاج ولم أحظ برؤية رقعة وجه أختي السّعدية إلاّ من خلال عوينة الباب ؟

- هل ينتظرون منّك أن تغتالي أخاك، وتمحينه من الوجود حتّى يرتاحوا ويطيب لهم العيش ؟

- ليتني كنت أستطيع؛ لفعلت مقابل نظرة واحدة إلى أعزّ أحبابي: صغيري جعفر!

-ها قد تحققت أمنيتك.

- آه لو تدري، آسيدي علاّل، كم كانت حرقتي قاهرة وأنا أتخيّله يكبر بعيدا عن عيني: «هل يتغذى جيّدا ويذهب إلى المدرسة بانتظام أم لا ؟ ترى، من هم أصدقاؤه ؟ أما تزال تنتابه حالة الحمى إيّاها ؟ هل يتذكّرني أحيانا ويسأل عنّي، أم أنّ الفاجرة نجحت في غسل دماغه ؟ ربما تكون علامات البلوغ ظهرت عليه، الآن، ونبت شعر ذقنه ؟ كيف تراه يتلقّاني إن انبعثت يوما أمامه ؟» هكذا أتقلّب في لحظات فراغي، أسأل نفسي وأجيب، ولا يهدأ لي بال وتخبو جمار روحي إلاّ عندما أتذكّر طيبة جدّته وحرصها الشّديد على سلامته.

-أستطيع أن أتخيّل حرقة الكبِد...

-وعندما يتوغّل بي الحنين في أحراش العمر إلى أعزّ أحبابي، ويشتعل صدري شوقا إلى ضمّه خريفا بعد خريف وصيفا بعد صيف، أذهل عن الدّنيا وأتيه؛ تارة تحت أجساد عابرة مصبّبة عرقا ولهاثا، وتارة أخرى على غير هدى بين دروب «رموش العروس» الكئيبة وحواريها المعفّرة بالتّراب ورائحة العهر، ثمّ أخترق بخور حضرة «موسم سيدي علي» الصّاخبة لأبدّد جحافل الغمّ التي تتناوب جاثمة على صدري إثر صور خاطفة عابرة: بسمة العنبر من شفتي والدي الحاج، خفّة أختي

السّعدية وعجلتها المضحكة، طفولة جعفر النّاعمة، المرحة، الشقيّة، المفعمة بعشق العصافير، ثمّ صور عطنة لضياع شقيقي زهير المقزّزة، وقهر طليقي، وغدر الكحلون، وعفن حبس لا طامو والدّاهي وعتمة هذا الطّريق الذي يبدو ألاّ أوّل له ولا آخر...

- ليس في الحياة ما هو أمرّ من الغربة و التّيه!

- ولُذت بأختي السّعدية والغمّ يثقل صدري عليه وعلى سَعدي.

- لكنك لم تقمي معها طويلا.

-كان عليّ أن أغادر قبل أن تستعر شهوة بغلها، وتسوء علاقتي بأختي السّعدية!

- تراه كان يعاشرها طمعا! خصوصا بعدما اكتشف علّة عقمها!

- أنت محقّ، ولولا أنّها خيّاطة ماهرة؛ يسيل من يدها الذهب، لما تردّد في لفظها كما تُلفظ النّواة!

- للاستغلال و الجشع ألف لون ولون !

-كنت أقلّب وجهي في المرآة صباح مساء بحثا عن أمارة الشّقاء الأبديّ موشومة على ملامحي بمداد باهت شفّاف يكاد لا يرى. وكنت كلّما سقطت، وشرّعت جسدي إلاّ وازددت يقينا في عبث الدّنيا وتنكيلها بالضعيف. فمن يمضي في حياته عاجزا متردّدا نادرا ما ينتهي به العمر إلى مصير أفضل!

- إلاّ بفضل من الله، طبعا، وسلطان من الناس.

- وكنت ما أزال أتعلق بحبال ذائبة عندما طمعت في شهرة الأستاذ ضون خِنطو موراليس نقيب المحامين وحنكته. لُذت بمكتبه الواقع«بممرّ دواصو» على مقربة من «باب التّوت» كي أطالب بالنّفقة وحقّي في حضانة الولد. تلقّطتُ بكلمات قشتالية، وتكوّمت في الكنبة أصغي إلى كلامه الكثير الذي لم أفقه منه شيئا.

- لعلّه بدا لك، في لحظة الحرج تلك، على قدر كبير من الخطورة والأهمية.

-كنت كلّما رفعت عيني إليه اخترقتني نظراته النّافذة وذوّبني مظهره الأنيق الذي يفضح ما ينعم فيه من عزّ ورفاهية.

- من غيرهم يمكن أن يعيش في عزّ ورفاهية ؟!

- وحدّد لي المحامي موعدا آخر، وحينما سألته عن الدّينيرو، ابتسم بترفّع وقال أن الفلوس لا تهمّ ! وهكذا ، التزمت بمواعيده التزام المؤذّن بمواقيت الصّلاة...

- يا له من تشبيه !

- صارت لقاءاتي بضُون خنطو بمنزلة طوق نجاة من عواصف القلق التي كانت تهيّج عقلي، ويرشح بفعلها جلدي عرقا وحمّى.

- وأدركتِ أنّ الحسم في مثل هذه القضايا يتأخّر كثيرا، وغالبا ما يأتي الحكم في غير صالح المرأة.

- لم أتحمّل مزيدا من الانتظار، انهرت وانجرفت مع سيل بكاء مرّ. وبينما كان يهدّئ من روعي بعبارات مسكّنة اعترفت له بأنني أعيش على حافة الضّياع«لم يعد زوج أختي يقبل بوجودي معهم بالبيت، ولست أدري ما سيكون مصيري». عندئذ التقط سماعة الهاتف، وانخرط في حديث وديّ ساخر مع أحد أصدقائه، قبل أن يلتفت نحوي ويسألني : «كِيريس سِر نِينيرا ؟» هتفت كالمصعوقة: «مربية أطفال؟! طبعا، بكلّ تأكيد».

- وطبعا،لم يجرّ عليك العمل في بيوت النّاس إلاّ مزيدا من المصائب!

- لست أدري لم تتبادر إلى ذهني، كلمّا تذكّرت هذه التّجربة المريرة، حكايات والدي الحاج عن نزاهة القاضي أشعاش وحزمه، وكيف كان إقباله المهيب من ساحة «محكمة الفدّان الشّرعية»كفيلا باستنفار كلّ من ببابها إنسانا كان أم حجرا.

- مجرّد كلمة واحدة تلفظها شفتيه تكفي لتعيدك إلى مباهج الدّنيا أو تطوّح بك في بئر سحيق من الأسر والنّسيان. بيد أنّه على الرغم ممّا تمتّع به الباشا أشعاش، أيامها، من هيبة وسطوة نفوذ،لم يكن يحيد عن جادة الحقّ والعدل قيد أنملة، حتى لو تعلّق الأمر بأمور السّياسة والسّلطان«أمام ميزان العدل لا فرق بين شريف وحقير، ولا بين غنيّ وفقير، ولا بين حاكم ومحكوم» هذا ما كان يلهج به لسانه في كلّ محفل.

- ولذلك أضحى البريء، والمقهور، والمغلوب على أمره من أصحاب الحقوق يلج باب المحكمة وصدره يجيش بالأمل كلّما انتهى إلى علمه أن الباشا أشعاش هو من سيفتي في قضيته.

- أليس العدل أساس الملك ؟

- حتى المعتوهين كانوا يلتمسون عدله؛ يحكي لي والدي كيف مثَل **زرع كَون**، حكيم مجانين تطّاون، بين يدي أشعاش ذات مساء بتهمة شجّ رأس غلام. وعندما استفسر القاضي المتّهم عن دوافع فعلته، سعل زرع كون وعطس ومسح أرنبة أنفه ثمّ التمس من القاضي أن يصلّي على النبيّ ففعل، ثم أعاد عليه نفس الطلب ففعل ثانية، ثم أعاد طلبه للمرّة الثالثة فغضب أشعاش واهتاج، وأيقن الحاضرون أنّ العقاب مصير زرع كَون لا ريب، غير أن الحكيم بادر إلى القول وأسى مفتعلا يجلّل صوته :« انظر يا باشا كيف أنك غضبت واهتجت لمجرّد أنني كررت على مسمعك دعوة إلى الصّلاة على خير البريّة؛ فكيف لا أغضب وأنا عرضة لسماع لقب زرع كَون وشتّى الألقاب الكريهة مذ يفلق الله الصبح حتى يغشى الليل». ويحكى أن قاعة المحكمة ضجّت بضحك الحضور، يومها، وأن الباشا أشعاش لم يتمالك نفسه من فرط الضّحك، واضطر إلى أن يغادر القاعة لفترة من الزّمن حتى لا تتبدّد هيبته بين الحضور، ثمّ عاد ليحكم ببراءة زرع كَون، مع تكفّل الإدارة المخزنية بمعالجة الصبيّ .

- نعم القاضي والمجنون، ولكن أين نحن اليوم من أمثال زرع كَون وأشعاش؟!.

- لقد صاحب انتقالي إلى بيت القاضي جبور الكحلون، للعمل مربية، إحساس عظيم بالأمن والطّمأنية. أخفّ الخطى في إثر الأستاذ موراليس المحامي صوب «لاس بالميراس» حيث يقطن القاضي، وأنا أمنّي النفس باستقبال حياة جديدة آمنة، وبحكم نافذ يضمن لي حضانة ولدي . كان بيته رحبا تحتلّ الشمس أرجاءه طوال النّهار، وكانت جدرانه مطليّة بأجود أنواع الطّلاء البرّاق النّاعم حتى لتحسبنّ الحيطان في نعومتها وانسيابها وتلألئها لجّة ماء منبجسة من سقفٍ تشدَه الأبصار لرؤية ما تزيّنه من زخارف جبص ملوّن. وكانت أجزاء الأثاث الموزّع على غرفه الخمس وصالونه من خشب الأبنوس الخالص المنحوت بأصابع أندلسيّة ماهرة، أما السّتائر المخمليّة والزّرابي الوثيرة والثريّات والمزهريات فتصيب الرّائي بذهول لا ينفك منه إلاّ بالاستغفار و الصّلاة على النبيّ !

- «ولتسألنّ يومئذ عن النّعيم».

- اقمت في بيت القاضي أياما لم أك أقوى فيها على رفع هامتي في حضوره، حتى عندما يناديني إلى مكتبه، ويصدر أوامره التي كانت نادرة في الأيام الأولى.

- للقضاة دائما هيبة.

- ولكنني كنت أتصيّد لحظة خروجه من البيت لأرقبه من خلال نافذة المطبخ المطلّة على الشارع وهو ينزل الأدراج، ثم وهو يركب سيّارته الفارهة بعد أن يبادر السّائق إلى فتح الباب؛ كان مخلوقا ضخما بكلّ ما في الكلمة من معاني الطّول والسّمنة والقوّة والاعتداد الكبير بالذّات، وكان يزكّي ضخامته مشيه شامخا، مرفوع الهامة، بطيء الخطوات، متدلّي الكرش، رافعا ذراعه إلى أعلى دائما وهو يمسك بأنامله سيجاره الفاخر. أما للاّ فوزية، امرأته، فقد ركبها وسواس النّظافة اللّعين. إذ لم تك تعبأ بما أبذله من جهد، ولا تتردّد أبدا في تنظيف البيت على الأقل ثلاث مرات في اليوم، أما الأطباق والكؤوس والصواني فلا تكاد تجفّ من الماء حتى تنكبّ عليها بالماء والصابون للمرة الخامسة أو السادسة.

- لعلّك ذقتِ أصنافا من الشّقاء لا تخطر على بال!
- حتى أنني كنت أهتمّ بشؤونها وأقلق أكثر من اهتمامي بشؤون رضيعها.
- الوسواس لا أمان له.
- ولا أمان لذلك المجرم الذي بقيت لا أجرؤ على رفع رأسي في وجهه إلى أن انبعث ليلة من تحت غطائي بسرواله المهلهل القصير وكرشه الضّخم وارتعاش أطرافه المتوتّرة بفعل رغبة شبقة؛ انتفضت مذعورة مذهولة، غير أنّ الدّهشة والرّعب عقدا لساني وتسمّرت في مكاني عاجزة عن الحراك؛ عجزت عن مقاومة مخزون الهيبة والخوف المتراكم في صدري مذ كنت طفلة يشنفون مسامعي بالحكم المأثورة«ثلاثة لا مزاح معهم:البحر والنار والمخزن»، إلى أن شبت عن الطوق كلّما سمعت اسم المخزن تشوّك جلدي وجرى الماء في بطني! ولكنني تحررت من الخوف، بعد اللّيلة المعلومة، وبدأت أرفع هامتي في حضوره، وعظم نفوري من خلقته عندما لمحت ما ينتشر في وجهه من بثور وبقايا جدريّ معافى، لقد تقزّزت من مظهر العينين الجاحظتين المعيبتين بما يحتلّ بياضها من حمرة، ومن فظاعة هذه الأنف المفلطحة الوقحة التي تشبه في شكلها حبة البطاطس الحلوة، بل إنني صرت أكثر شجاعة في معاكسته ومعارضة كلّ ما أخاله لا يناسبني من أمور العيش ولا يناسب لاّ فوزية، أعزّ أحبابي، التي كانت تقضي في عشرته أسوأ أيام حياتها.
- ألم تفكّري في مغادرة هذا الجحيم؟
- فكّرتُ ألف مرّة بعدما انزاح الغطاء وظهر المستور، لكنّ اعتقاد لاّفوزية بكونها امرأة آيلة إلى جنون، ومبادرة الكحلون الإجرامي إلى الاقتصار في معالجتها على حبّات البرومور المسكّنة، وتزكية الإحساس لديها، صراحة، بأنها مجنونة، وأنه سوف يقتادها إلى «مارستان سيدي فريج»، كلّ ذلك ولدّ في جوفي مرارة عظيمة وحسرة على هذه المرأة التي كانت أكثر من أمّ لي بحنانها وكرمها وحديثها العذب؛ أحببت أن أتقي عنها الشرّ ما استطعت، ولذلك قرّرت البقاء. معها سهرت اللّيالي الطوال أسرد الحكايات وأرتل القرآن وأتلو الأدعية! وكان تفاقم الوسواس المرضي يبلغ بها حالات عصبية محزنة، ترتعش عندها أطرافها، ويشحب فيها لونها وتزيغ النّظرات رعبا حتى تخال عينيها تقفزان من محجريهما، ثمّ تنتهي إلى أن تتكوّم أشبه ما تكون بحيوان جريح، وتسافر في نحيب وشهيق.
- ماشاء الله، أصحاب مثل هذه الحالات يكونون ودودين وكرماء.
- أعزّ أحبابي؛ تزيل اللّقمة من فمها وتطعمك إياها، وقد ألّفت بين قلبينا رابطة محبّة متينة فطن لها المجرم ومكر ليقطعها.
-يمكرون ويمكر الله.
-لم أكن أهتمّ، في البداية، بمصدر الهدايا التي تنهمر على بيت الكحلون بمناسبة وبدون مناسبة، وكنت كلّما فتحت الباب إلاّ وأطلّ وجه غريب متوتّر الملامح زائغ النظرات يحمل بين يديه هدايا: أجهزة إلكترونية، أثواب رفيعة، ملابس جاهزة، ساعات يدوية، صناديق خضر وفاكهة، زرابي وثريّات، أظرفة بريدية مملوءة مشمّعة...وغيرها من الهدايا التي كان الكحلون، بمجرد ما يتسلّمها يبادر إلى تخزينها في قبو البيت المغلق دائما بإحكام. وعندما بدأت أسأل عن مصدر هذه الهدايا من أصحابها ذهلت لكثرة أسماء الأشخاص ووظائفهم وأماكن انتمائهم، ولم أفهم معنى أن يتلقى القاضي كلّ هذه الهدايا وهو لا يشتغل بالتّجارة أو الكسب، وعندما استفسرته ذات ليلة عن الأمر أرغد و أزبد وجحظت عيناه، وأقسم ألاّ أبيت ليلة أخرى في بيته إن حشرت نفسي في مثل هذه الأمور التي لا تعنيني! ولكن لاّ فوزية انفردت بي ذات عصر بغرفة نومها وحكت لي عن جشع الكحلون وطمعه، وكيف أن دمّ الرّحم الذي يجري في عروقها لم يشفع لها عنده؛ إذ تعمّد معاداة إخوانها والسّعي للاستحواذ على ما ورثته عن أمها من حليّ عتيقة وعقار، وأخبرتني، أيضا، عن الرّشاوي التي درج القاضي يتلقّاها مذ ولج سلك القضاء، وأنها ابتدأت بديك روميّ، أيام كان يشتغل في محكمة بالريف الشرقيّ، وانتهت إلى سيارته الفخمة التي طارت بي، ذات ليلة، إلى جحيم «رموش العروس» !

- وهل يُسخّر متاعٌ حرامٌ في غير معصية ؟!

-ثمّ حذّرتني المسكينة من مغبّة التّهاون في إقفال باب غرفتي ليلا« فالفاجر يثمل ويعود إلى البيت مثل ذئب جائع لا يميّز بين نعومة نهد وإسفنج غسيل».

- وكان فات الأوان كثيرا على تحذيرها.

- بدأت أعراض الحمل من غثيان ووهن تعلن حضورها عبر جسدي صباح مساء. وعندما أخبرته اشتعل الثّور غضبا وسخطا، وكال لي من غليظ الشّتائم ورقيقها ما شاء، وانهال عليّ ضربا ورفسا إلى أن بادر جسد لا فوزية الهزيل يحميني بكلّ ما أوتي من قوة.

- وفكّرتِ في الهروب مرّة أخرى..

- أنهكني الغمّ والبكاء في تلك اللّيلة فتغشّاني نعاس ثقيل. ثمّ إنّي استفقت على أجساد ضخمة تتهالك عليّ، تطوّقني وتغلق عينيّ وفمي حتى تكاد تخنقني، ثمّ ترمي بي في صندوق سيّارة عرفت أنها سيارة الكحلون!

-كيف عرفت أنّها سيّارته ؟

- من صوت محرّكها؛ كنت راقبت مرارا انطلاقها إلى المحكمة من نافذة المطبخ، كانت تحدث صوتا رقيقا حادّا أشبه ما يكون بصراخ وليد!

- وكيف كان حالك داخل الصندوق ؟

- اجتهدت خلال ساعات هذه السّفرة الطويلة أن أتخلّص من الضّمادتين اللّتان تحجبان عينيّ، ولكن أنّى لي ذلك ومعصميّ موثّقين بسلك كهربائيّ متين، وروائح البنزين والزيت ومطّاط العجلات الملتهب تخنقني وتنذرني بمصير أسوأ؟!

- وكانت الرّحلة طويلة..

- بعد حوالي ستّ ساعات من سفر شاقّ وعذاب مبين خفّت سرعة السيّارة، قليلا، وفهمت من اضطراب حركتها أنها تسير على طريق ترابيّ لا شكّ في أنه يفضي إلى دوّار أو مزرعة. توقّفت أخيرا. وبمجرّد ما انتشلوني من صندوق السيّارة حتّى تسلّلت إلى أنفي رائحة دواء خفق لحدّتها قلبي، واضطربت لها أمعائي، وشعرت ببوادر غثيان...

- هل كان مستوصفا قرويّا ؟

- سرنا عبر ممرّ وعر غاصّ بالحفر، ثم سمعت صوتا حادّا غير مميّز يصيح أن أسرعوا، شعرت بنفسي أطير في السّماء فصرخت؛ وما أن تهالك جسدي على سرير متداع يئزّ حتى ندّت منّي صرخة قويّة بفعل حقن همجيّ أخذ سائله ينتشر في عروقي..

- عمليّة مصمّمة بدقّة وتنفيذ تنظيم محترف!

- استفقت، أخيرا، على هدير لم أستطع تمييزه؛ في غرفة مضاءة بمصباح خافت حيث شعرت بنفسي في غاية الإرهاق والوهن. استفقت، قليلا، ومرارة مخدّر لا تغادر شفتيّ. شعرت بفراغ هائل يملأ كياني ويكاد يصيبني بدوران. أدركت أنني اختُطفت من غرفة نومي، وأنني الآن في مكان غريب ينذر بالخطر، ولم أشكّ لحظة واحدة في أنّ الكحلون الكلب ينوي دفني حيّة أنا والجنين، لكن إحساسا مفاجئا بالفقد والفراغ كان يطغى على كلّ ما عداه من أحاسيس. وتأهّبت لمغادرة الفراش لكن ألما صاخبا منبعثا من بطني شلّ حركتي وأعادني إلى موقعي، رفعت قميص نومي إلى ما فوق السرّة؛ لم أتحمّل هول ما رأيت...!

- آثار الجريمة بادية للعيان..

- وعظُم الخواء من حولي والعتمة، وامتدّا إلى أن انسدت الآفاق أمام ناظريّ فلم أعد أسمع شيئا أو أرى غير أنين فجيعة وبقع دمٍ لا تزال تقطر من ثياب نومي، وأطلقت صرخات حادة مدويّة وأنا ألوذ بإغماءة رحيمة.

-الغياب عن الوجود ترياق المفجوع!

- فتحت عيني على سحنة لاّ طامو الشّوهاء! أذكر جيّدا كيف شرّعت فمها الخرب ببسمة مقزّزة شامتة وهي ترحّب بي:«مرحبا بزينة النّساء».ثمّ تلاشت سحنتها القذرة، تدريجيا،وأنا أصغي إلى طيف لا فوزية تردّد أغنيتها الحزينة اليائسة التي تملأ كياني شجنا وحسرة «يَاابنتي يا بنت الناس،جاك الذّيب فزِينْ لبْاس،ضحَك وغنَى وشدّْ وبَاس،بنَابو عضّ وهدّ لسَاسْ،في دمّك غاص يا بنت النّاس»

رحلة الثّلاثين ربيعا

رأيتَك، ذات لحظة، معلّقا بين السّماء والأرض. تجاهد بمرارة لتُعتق من قبضة حازمة واثقة تطوّق ناصيتك. ثمّة وجود لمخالب حادة في عظام قدميك مغروسة بإحكام. سقف إسمنتيّ صلب تثبّت عليه مسامير فولاذية كفّيك. يتوّج جبهتك إكليل شائك ويرسل الدّماء الغزيرة على محيّاك سواقي. ثم رأيتَك، لحظة أخرى، منقادا من قِبل حرس ملثّم عبر دهاليز رطبة معتّمة. قدماك تجران خلفهما أصفادا حديدية صدئة. حول عنقك ورقبتك تلتفّ سلاسل مفتولة. من صدرك المنقبض تتسللّ واهنة أنفاسك. عيناك تجحظان، بالحمرة تتضرّجان... وإلى بلوغ نقطة نور تتوق نفسك؛ بعيدة هي! تقاوم لتثبّت بصرك عليها. جوفك وحلقك يجفّان احتراقا بينا السّماء تمطر!...

تتحرّر من كابوسك. تقترب منك مليكة وأمّك. من خلفهما يقبل سي علال؛ أبوك الذي لم يلدك! تتبدّد ملامحهم من جديد في خاطرك. يغشاك قنوط مفاجئ. مروّع مدمّر. تخترق ذاكرتك سحنة عبد النعيم النّكراء. المدير والمحاسب. صهر الحاج عشيبة مالك المصنع. في مكتبه الرّطب المكدّس بالملفات يستقبلك. بجسد ربعة سمين وشعر أشقر منفوش وعينين غادرتين وأسنان ناتئة متفرّقة في فمه كأسنان القرش. على كرسيين خشبيين عتيقين تجلسان. من السّقف يتدلّى بوقاحة مصباح ضرير. هل من شيء آخر داخل هذا المكتب غير ملفّات مكدّسة وقنينات مياه غازية فارغة وأكياس ورق مقوّى وسرير أرضيّ مبقّع منزو في ركن الحجرة الأيسر؟ صحيح؛ وحنفية ماء صغيرة أسفل مرآة مستديرة يمتدّ صدع كبير فيقسمها إلى جزأين. على سجلّ الواردات المفتوح تنتشر حبّات أرز وفتات بطاطس مقليّة وبقع زيت! ثمّ نظرات عبد النعيم النّزقة التي لا تستقر في مكان...:

-«لا مكان لمن لا شهادة له».

-« معي شهادة البروفي».

- «لم تعد تصلح حتى لتجفيف المنيّ!». يعلّق ويغيب في جوف ضحكة معربدة كريهة.

تفلح وساطة سي علاّل. توقّع وتستلم العربة والمفاتيح. من مستودع الورش تنقل البضائع الجديدة، وعلى أكشاك المعرض توزعها بحسب السجلّ اليومي...

-«اسمع يا جعفر، مسؤوليتك مراقبة سجلّ الصّادرات والواردات عند نقلها و تخزينها».

مهام أخرى أسندت إليك بعد ذلك. في أوقات معلومة تعيد إلى المخزن سلعا بعينها. تحمل سخرة الباطرون الحاج عشيبة إلى منزله.. كلّ صباح تغسل سيّارته الجيب. بمعطّر نفّاذ تَرشّ مكاتب الإدارة ومكتب عبد النعيم الرّطب في قبو المصنع. بديعة تعتني بترتيب ملفّاته...

رائحة كيماويّة تنبعث من عنبر المستشفى تشقّ صدرك كلّما فُتح باب الحجرة، تخترقك إلى أعماق الأعماق، تعبث بأحشاء أحشائك. تمتزج هذه المرّة بعطر مطهّر أرضيّ ذي رائحة نفّاذة، وتمخّط المنظفة المقزز. تقاوم الاستسلام للغثيان. تبقي عينيك مغمّضتين تحسّبا لما تزرعه أشعة الشّمس المتسلّلة عبر النافذة من توتّر مؤلم في رموشك...

هناك أيضا كنت تتّقي أشعّة الشمس المارقة من فتحة النّافذة وأنت تصغي إليه «لا أحد سوانا مسؤول عن المعرض. فقط أنا وأنت! كن حريصا على سدّ المخزن وتفقّده في كلّ حين». وتتساءل في حيرة : كيف تكون مسؤولا وحيدا عن مخزن عريض يمتدّ مئات الأمتار وآلاف أكوام السّلع تتكدّس فيه؟!. لم تفهم. لم تكن بحاجة إلى أن تفهم. لنقل: إنك لم تكن في وضع يسمح لك بأن تفهم! ولذلك لم ترفض. ثِقل المسؤولية أهون عليك من حِملِ البطالة الفظيع. السّلع المطلوبة تستقدمها وتعيد تخزين غيرها. تجلب السّلع من المصنع إلى المستودع وتسجّلها وتنقل بعضا منها إلى رصيف التّحميل. كم أنفقت من عمرك على هذه الحال؟ سنة ونصف؟ سنتين؟ سنتين بالتّمام والكمال ظللتَ فيهما متيقّظا مستنفرا تسجّل سلع المستودع والمعرض وتراقب...

وتدنو الممرضة. تراقب ضغطك مرّة ثالثة وتسجّل. تجفّف جبهتك وتطهّر عرق رقبتك وإبطك وترش بعض العطر الخفيف على حافتي السّرير. تتأمّلها، قليلا، وتغمض عينيك على غير إرادة منك...

وبإرادتك تغمضهما كلّما واجهت فساد بديعة شنبولا وذمّة عبد النعيم بوقادّيدة؛ يسوق زوجها المهيدي إحدى شاحنات المعرض. تتكفّل هي بتنظيف المكاتب الإدارية للمصنع...

- «أكثر المكاتب قذارة مكتب سي عبد النعيم»!

تبرّر غيابها الطويل مستلقية على أكوام ملفّاته.

ودوّن عبد النعيم ملاحظاته على سجلّ المكافآت:

- «بديعة أخلص العاملات في المصنع، وزوجها المهيدي أوّل المضحّين بوقته وصحته في سبيل تطوّر أعمالنا».

وكانت الأعمال تتطوّر كثيرا أيام الصيف..! تكثر رحلات المهيدي إلى أقاليم السّاحل والصّحراء والأندلس، وتزداد قذارة مكتب عبد النعيم وهمّة بديعة شنبولا وحيويّتها؛ وعلى الثّلاثة تظهر آثار النّعم!

لكنّ العمال يزدادون رهقا وفاقة؛ تذبل جلودهم وياقات قمصانهم، تشحب وجناتهم وتضمر أجسادهم، تتوسّع فتوق ظهورهم وأحذيتهم وجيوب سراويلهم. يسخط العمال. يكفرون بوهم تحوّل المشروع إلى جنّة مأمولة يعبّون من طيب خيراتها بعد أن سقوها من خالص عرقهم ودمائهم. يثورون ويتمرّدون على الحاج عشيبة؛ قل: يفكّرون في التمّرد عليه، بعد أن لم يكن أحد منهم يجرؤ على التّنفس في حضرته. الكلّ يهاب ثروة الحاجّ التي تصنّفه على قائمة أثرياء البلد. من يستطيع أن ينكر أنّه الحاكم الفعليّ للمدينة ونواحيها؟!. بفتوّته المشهورة يكسر ضلوع من يشاء ويسحق عظامه. حتّى ولو وسط الشّارع العام وفي حضور جماهير المواطنين الغفيرة. يفعل وينادي على أضخم شرطيّ مرور ويأمره«خذه إلى أقرب مخفر شرطة وقل لهم الحاج عشيبة. سوف ألحق بكما» وينفّذ الشرطيّ في الحال وبدون تردّد؛ يحرص المسكين على لقمة عياله؛ يعرف جيدا متانة الصّداقة التي تجمع الحاج عشيبة بعقيد الشرطة، بمحافظ المدينة وبنفر من قوّاد الجيش وحاشية المستشار... الحاج عشيبة عمود راسخ من أعمدة الاقتصاد الوطني. ركيزة متينة وأيّ ركيزة! مسمار فولاذي نافذ في خاصرة السّلطة لا سبيل إلى زحزحته؛ كيف تنفع معه مطرقة حدّاد سوّد جلده القهر ونار الكير أو عامل في حجم القملة هدّه الاستغلال، وترّع روحه الحرص على لقمة العيش بأسلاك الذلّ والتقيّة؟!...

ولكن، هذا الشّرطيّ، تستطيع أن تراقبه، الآن، بعين شبه مغمّضة وهو يقترب من سريرك ببطء. كم هي ناعمة بسمته! لا شكّ في أنه يبرّ والديه. يتعبّد ويحبّ فعل الخير. ربما كان يفكر في ممارسة مهنة أخرى. الطب مثلا، الصيدلة. لا. لا ينبئ محيّاه بعبادة الدّرهم. ربّما التّعليم. لو خُيّر ما أحسبه يختار مهنة أخرى غير التّمريض؛ تناسبه تماما. هذا الحنان الذي لا يوصف يقطر من فيض نظرات شجن يوجهها إليك، إلى أمّك مليكة الملهوفة، إلى فئة الآخذة في الذّبول يوما بعد يوم، إلى حال زميله اليائس البائس. لمحته يبتسم في وجه سي علال بوداعة. عندما دخلا ربت على كتفه من دون أن ينتبه إليه أحد، وبعد أن دنت أمّك من السّرير أسرع بإحضار كرسيّ لتجلس قبالتك. حنان ووقار وسماحة وهيبة. مسؤولية وحزم ورحمة. معادلات نادرة. ممكنة. وتساءلَت روحك بحسرة: ماذا لو نهلنا جميعا من هذا المزيج العجيب؟ لو استأصلنا الكراهية من وجداننا اليباب، وأضأنا مسالك التّيه المعتمة في هذا التراب الذي عفّرته دماء المقاومة وأمطار الخير...

وهاج صراخ العمّال«لا جفاف يحسّن أوضاعنا المزرية ولا فيضانات؛ في الشّتاء غرقى وفي الصّيف حرقى، لا مناص من أن يصدح صوتنا بالصراخ؛ صوت عال؛ صوت يطغى على ضجيج المحرّكات وعلى صمم الأبدان والجدران». لكن، في قبو المعمل كان الحاج عشيبة يعتقل كلّ من سولّت له نفسه مجرّد التّفكير في التوقّف عن العمل. لم يكن طَردُ المشاغبين من العمال عقابا كافيا يثلج صدره القنوط اللّجوج، لا بد من إجراءات أخر ترهبهم وتسدّ الخناق عليهم، عقاب يجعلهم

يفكّرون ألف مرّة قبل أن ينتفضوا بوقاحة في وجه سيّدهم ووليّ نعمتهم. لا بدّ من تقطير الألم في أجسادهم كما تقطّر العجائز الزّهر بصبر وعناية وتؤدة...

ويسري الألم في جسدك مسربلا بحمّاه الغاشمة وبلبلة وذهول، يحضر ليعبث بعروق أعصابك ويسلّها من مسام القفا واحدة بعد أخرى كما تُستلّ شظايا الزجاج المنكسر من شروخ لحم بضّ. يهيّجك بوخزه الحاد الخاطف فتصرخ ملء صوتك وترتعش وتهذي. تهمس الممرضة الشّقراء الوديعة:«إنه يهذي»...

-«إنه يهذي الحاج؛ أنت تعرف حماسة الشّباب» يعلن عبد النعيم ضاحكا مهوّنا عليه حالة العصيان التي بدأت تتفشّى في صفوف العمال بفعل تحريضك.

ولكن الحاج لا يثق بهذيان عصيان، ولا بحماسة شباب، ولا بالشّباب نفسه، بل ولا «بكلّ من يأكل قمحا أو شّعيرا»...الحاج لا يؤمن إلاّ بالدّرهم، ولا يعبد إلا إيّاه. حتى وهو أمام المحراب متنكّرا في عباءة التّقوى؛ يحكي لك شُعيب عن أبيه عن أحد معارفه عن مأمون «جامع السنّة» أن الحاج عشيبة وقف للصّلاة ظهر جمعة على مقربة منه، وكان من عادته القفز على رقاب الناس لتقدّم صفوف المصلين على الرغم من كونه آخر من يصل إلى المسجد، وفور القيام من الرّكعة الثانية جهر الإمام «بسمع الله من حمده»، فردّ الحاج عشيبة بصوت مسموع على غير إرادة منه«خمسة أطنان ونصف»! انفرط عقد المصلين بالضحك، وغادر عشيبة الصّفوف وهو يتوعّد بإغلاق المسجد «وتأديب أولاد الزّنا». يحلف الكلّ على أسطورية ثروة الحاج عشيبة، ويتزكّى اليقين، يوما بعد يوم، في أن منابعها ليست طاهرة تماما، ولا شرعيّة. لكن لا أحد يستطيع أن يردّها إلى مصدر محدّد. كثير منهم يجزم بأن مجرد استحضار لقب عشيبة يكفي يقينا في أنّ العشبة الشيطانية الخضراء هي أساس هذه الثروة التي لا أوّل لها ولا آخر.«من شحّ أو من حرام»؛ يردّد سي علاّل كلّما جرى الحديث بذكر الثّراء. يستعرض بعضهم كيف أنفق الحاج عشيبة الشطر الأكبر من طفولته ومطلع شبابه يدير علبة الزّهر في الأسواق الأسبوعية وفي مواسم الأسياد والموالد وعلى مقربة من بوابات المدارس...«أَرِّيبَا لاَ لاَطَا، واحد، اثنين،ثلاثة،لِّي مَا جاش يَبْقَى بْلاَشْ،لِي مَا زْعْمْ مَا يَاكُلْ لحْمْ،لِي مَا تْمْشَّى مَا يْتْعَشَّى،لِّي مَا قَمَّرْ مَا يْعَمَّرْ ، أَرِّيبَا أَرِّيبَا أَرِّيبَا لاَ لاَطَا»* قبل أن ينتقل للعمل حمّالا في مصنع نسيج يملكه إسبانيّ هو خَسِينتو طورّيس؛ ولد «بتمودة» وترعرع بها، ورفض أن يغادرها زمن استعرت فيه حملات العودة طوعا إلى إسبانيا، بل حتّى بعدما لسعته كيّة الخيانة وخلخلت عقله تداعياتها!...

ويُقبل الطّبيب الوسيم. يمسك بمعصمك. يقيس الضّغط ويدوّن ملاحظاته. ينظر في ساعته ويؤرّخ زمن الزّيارة. على السّرير أسفل قدميك يعلّق السّجل. يسحب الممرضة الوديعة إلى ركن قريب من النّافذة؛ يوشوش لها بكلمات. تنصت إليه بعناية. تلتقط نظراتك، في رمشة عين، سرب طير يحلّق مبهتجا مرحا في سماء مشمسة، ظلّ عصفور مسافر يحطّ على قرميد النّافذة يرتاح، قليلا، من عناء سفره الشاقّ الطّويل. تغوص، من خلال تأمّل كيانه الدّقيق، إلى أعماق سحيقة في وجدانك! تماما، كما اعتدت أن تفعل أيّام فتوّتك الحزينة. لكن سهام الضّوء الحادّة تقهرك؛ تعميك فتغمض عينيك...

---

* تتمّ عملية القمار هذه بواسطة علبة و زهر، تملأ الخانات التي تتضمّن الأرقام بقطع النقود، باستثناء رقم واحد يختاره مدير اللعبة، ثم يرمى الزهر ليفوز صاحب الخانة المملوءة، ويأخذ صاحب اللعبة نسبة واحد في المائة من كلّ جولة. ومعنى قوله: (العلبة إلى أعلى، واحد اثنين ثلاثة، الذي لا يقبل لا يكسب، من لا يتشجّع لا يأكل اللحم، من لا يراهن لا يتعشّى، من لا يقامر لا يعمّر، العلبة إلى أعلى).

ويفتح خسنطو طورّيس العجوز عينيه المتعبتين على حيوية الشّاب عشيبة وفتوّته؛ يراقب همّته في العمل وأداءه، الذي يعادل أداء رجلين ضخمين أبلهين، فينال منه الطّمع. يأمن جانبه و يقرّبه إليه ويثق به! ثمّ يشرع في تكليفه ببعض المهام الحسّاسة التي لم يكن يضطلع بها أحد غيره: إيداع الموارد المالية للمصنع بشكل يوميّ في حساب بنكيّ ، ثمّ سحب قيمة الشّيكات المسلّمة من قبل الزبائن، فضلا عن تحويل بعض العملات التي كانت ترِد إلى قسم التّصدير بالمصنع إلى العملة الوطنيّة، وإيداعها في الحساب الشخصيّ لخسنطو بالبنك الوطني. ثم تُتوّج الثّقة باختياره ليكون شريكا اقتصاديا (صوريّا) بعدما صدر ظهير (الإستقلال الإقتصاديّ الوطني)؛ يفرض على كلّ معمّر سابق شريكا وطنيّا في تدبير مؤسساته الاقتصادية.

كان خسنطو تعهّد الشّاب مراد عشيبة مذ كان يافعا. انتشله من عالم الحواة والتشرّد والصعلكة، وخلع عليه رداء الأمان والاستقرار. ولكن عشيبة تربّى على ممارسة لعبة الزّهر التي أصبحت تجري في دمه مجرى الدّم في العروق. وبرمية ماكرة شطّب الطّاولة! ابتلّ العجوز ذعرا وشماتة واختلّ ميزان عقله عندما ثبتَ إفلاسُه. انتهى به المطاف، أخيرا، صحبة زوجته «بالمشفى العسكريّ الإسبانيّ» تتعاقب عليهما اللّيالي والفصول من دون أن يجدا تبريرا شافيا لكلّ ما حلّ بهما.

وكبُر مراد عشيبة، بعد ذلك بسنوات، وأصبح برلمانيّا مشهورا. سَمُنَ و اتّسعت سبلُ التّجارة والاستغلال في وجهه؛ قيل إنّ الوحل يتحوّل في يديه إلى ذهب، والبول إلى نفط وغاز! وأصبح، بعد شهور من الواقعة، مالكا فعليّا لمصنع خسنطو طرّيس! ولكنه ظلّ يدّعي دائما أن حنينه لأيام صحبة خسنطو هو الذي حفزه إلى شراء المعمل في المزاد العلني. ولم يعد ينقطع عن زيارة العجوز الخرف، في غرفته بالمشفى الإسباني، وتفقّد أحواله، بعد أن لم يكن يجرؤ على الاقتراب منها في حياة دونيا كلارا زوجة خسنطو، التي أوكلت محاميا لكشف الاختلاسات المالية في حسابات المصنع أثناء غيابها وزوجها الاضطراري سنتين كاملتين بإسبانيا من أجل العلاج. وكان عشيبة المتهم الوحيد في هذه القضية. ومن حضر جلسات المحاكمة شاهد بأمّ عينه دونيا كلارا تصرخ بهستيرية وهي تهجم على الحاج عشيبة بالقرب من مدخل قاعة المحكمة:

« El Maricon achiba…Ladron de los ladrones»

«المخنّث عشيبة ، لصّ اللّصوص»

وبدا الماكر محصّنا تماما! كلّ الأموال التي اختفت من الحساب البنكي تمّ سحبها استنادا إلى توكيل مالي منحه إياه دون خسنطو بشكل رسميّ، باعتباره شريكا، وهو مسجّل في بلديّة المدينة وموقّع من قبل عمدتها. أما الكشوف والسّجلات الخاصة بصرف هذه الأموال فهي مودعة لدى مُحاسب المصنع الجديد عبد النعيم بوقدّيدة، ولمراد عشيبة ومحاميه عشرات النسخ منها. وكلّها قانونية وسليمة سلامة لا يرقى إليها أدنى شكّ. وبمثل هذا الإتقان في الصنعة نجح الحاج عشيبة في تقويض أسطورة الدّهاء الغربي التي كانت تجوب الآفاق ولا تزال. وعندما كان المقرّبون من أصحابه التجّار يعيّرونه بلصوصيته، ونكرانه للجميل، وانسلاخه عن سماحة المسلم وأمانته، كان يشرّع فمه الواسع بضحكة خبيثة ويعلن«لم أستردّ إلاّ جزء بسيطا ممّا نهبه الغرب منّا»!

و تمتزج صورة الحاج عشيبة، في ذاكرتك، بصورة مراد الذويّب، مندوب نقابة عمّال المصنع وفقيه القانون المفوّه؛ الذويّب طالب حقوق سابق، ومناضل عتيد في اتحاد الطلبة، وهو الآن يشغل مهام عدّة، فهو عضو اللجنة المحليّة«لحزب المواطن» وناشط في منظّمات حقوقية، وجمعيات خيرية وثقافية ونسائية، وتعاونيات فلاحية، ومستشار بلديّ ومراسل صحفيّ لجريدة (الأخبار الأخيرة) ورئيس جمعية آباء وأولياء تلامذة «مدرسة السّلام»، رغم أنّه لم يتزوّج بعد! وعازف دربوكة بجوق الحوّات للطرب الأصيل، ومروّج مواد تجميل نسائية ومرافق حجّاج ومعتمرين وأشهر غسّال أموات بالمدينة... أغلب العمال يلوك اسم مراد؛ ليس بالخير في كلّ الأحوال طبعا. يذهلكَ صوته الجهوريّ وتسحرك خطابته. يطويك تحت إبطه

ويعدّ بواسطتك الجلسات السريّة ويستقطب ببلاهتك الأنصار. كنتَ تتّخذ مكانك على مقربة منه وتنصت. ولا يزال حديثه عن القانون والعدل يطنّ في أذنيك، ويداه مشرعتان للرّيح، وعيناه مغمّضتان، وأوداجه منتفخة، وفتات البصق يتطاير من حاشيتي فمه الواسع :

-«إن فكرة ارتباط العدل بالمساواة في المعاملة مدينة بوجودها إلى ارتباط العدل بالأصول القانونية، فالمفروض أن يطبّق «القانون»بالتساوي في جميع الحالات وعلى جميع الأشخاص الذين يتناولهم دون خوف أو محاباة، ودون تفريق بين غنيّ وفقير، أو قويّ وضعيف. والقانون الذي يطبق على الجميع بدون تمييز هو تجسيد للعدل، ولا يمكن للعدل أن يعتبر حتى كمبدأ للمساواة بدون توفّر هذه الصّفة...»

وما أن ينتهي من إغلاق فمه الواسع حتّى تصفّقون له وتهتفون باسمه وتهرولون لعناقه وتهنئته على خطبته العصماء، ولو لم يفقهها معظمكم، بمن فيهم عبد النعيم الذي يشرئبّ بعنقه من بوابة مكتبه، وقد اعتلى الانشراح محيّاه مستبشرا بالوحدة التي أصبحت تؤلّف بين العمال في ظلّ زعامة الذويّب. ولعلّك كنت أكثر العمّال سعادة ببلاهة عبدالنعيم وجهله خطورة غضّ البصر عن مثل هذه الحركة النقابية التي تبدأ عادة بخطابات عصماء وتنتهي بإضرابات واعتصامات وملفات مطلبيّة بحجم الفيل. ولكن عبد النّعيم يبتسم دائما لكلّ هذا الاستنفار، وكأنه يشجعه ببسمته ليزداد اشتعالا وتأجّجا. حتّى تولّد لديك يقين غريب في أن عبد النّعيم يروم القضاء على صهره الحاج عشيبة بتقليب العمال عليه استعدادا لإضراب عن العمل، طويل الأمد، يؤدي إلى خراب المعمل وإعلان إفلاسه. وتحبلُ مخيّلتكم بالآمال ويمتدّ مخاضها فصولا وسنوات من دون أن تظهر عليها أمارات الوضع. تشيخ عجيزة الدويّب على كرسيّ الزّعامة النقابية وتتعفّن من دون أن تنجلي عتمة أوضاعكم المزرية.

وفي لحظة مكاشفة يثور صوت تمرّد بداخلك«والله إنّ الحياة في المعمل لم تكن، بحال من الأحوال، أفضل من ماخور الدّاهي ولاطامو: اعتقال واستغلال وعبودية وترهيب».. ثمّ يعلن مزيود وهو يفتل لفّافة حشيش بأصابع مسلوخة مرتعشة«وما على (الفامبير) إلاّ أن يغرز نابيه في أعناق الضحايا ويمصّ الدّماء»...وهاأجنحةالعصافير الصغيرة تتوتّر وتعبث على مقربة من نظراتك المشدوهة إلى الفراغ.

تقاوم لتمسح سائلا دافئا لزجا ينساب من خيشمي أنفك. لكن كفّ الممرضة الشّقراء تسبقك إلى ذلك. تجفّف الدّم الدّافئ بنتف القطن الأبيض. تلتمس من الشرطيّ الطيّب استدعاء الطبيب المداوم. بعد لحظات تنكبّ عليك جثّة مترهّلة لعملاق كبير الرأس ضيّق العينين والخاطر. يتثاءب من فرط غلبة النّوم عليه. يوبّخ الشّقراء على تهاونها في مراقبة حالتك. تستميت هي في الدّفاع عن نفسها وتتحجّج بأن النّزيف كان مباغتا لم يمهلها لفعل شيء. يسفّه العملاق بوقاحة سافرة كلّ مبرّراتها، ثمّ يدعوها إلى حقنك بمحلول مركّب. تصمت الشّقراء برهة من الزمن. تستفسر بلطف إن كان حجم النّزيف يستدعي مثل هذا التلقيح الذي غالبا ما يكون له تأثير معاكس على سريان الدّم في الدّماغ.

-« لم يبق إلاّ أن تعلّميني شغلي!وجه النمّ»

يلفظها الضّخم في وجه الشقراء. يدفعها عن سريركَ بفظاظة ملحوظة. يكظم المخبر الوديع غيظه ويخرج من الحجرة مسرعا. يغالب الآخر ضحكة وقحة توشك أن تفضحه. تمسّك الشّقراء الوديعة بكلتي يديها بحافة السّرير وقد تدرّج وجهها حمرة قانية...

لكن كرة الشّحم المترهّلة لا تتوقّف عن الصّراخ والزّعيق والكذب؛ يقيم الدّنيا ويقعدها بادعاء الدّفاع عن حقوق العمّال، يلوّح بالإضراب تارة، وبتقديم عرائض الاحتجاج للبرلمان تارة أخرى، وباللّجوء إلى القضاء الإداري تارة ثالثة، حتّى أضحت مواقفه موسومة بجدارة، من قبل العمال، بصفة العنترية الكذّابة والوعود الفارغة «ينبغي أن يعرفوا أننا موجودون... يمكن أن نضرب عن العمل في أيّ وقت... البارحة اجتمعنا بأرباب المصانع...الحاج عشيبة تعهّد بتنفيذ الاتفاق...حضر معنا مندوب

وزارة الشغل...مساء اليوم فاتحت السيد المحافظ في موضوع المطرودين عن العمل بسبب انتمائهم النقابي... وعدونا بتنفيذ البنود الأولى من الاتفاق وترسيم المؤقّتين....تمّ تحديد موعد جديد لإكمال الحوار على باقي نقط الملفّ المطلبيّ» وتنصرم المواعيد الجديدة من دون أن تنفّذ البنود الأولى المتفق عليها في المواعيد القديمة، ولا تلك التي تمت المصادقة عليها في المواعيد الأبعد قدما، ولا التي قبلها، ولا حتى تمّت صيانة المكتسبات العتيقة مثل تحديد ساعات العمل اليومية، والتعويض عن إجازات الأعياد والعطل الوطنية، وصرف التعويضات العائليّة التي توقّف مفعولها عن السّريان منذ أكثر من ستة أشهر، والبتّ في ملفّات المطرودين والذين لم يعوّضوا بعد إصابتهم بحوادث شغل، وقبلهم أولئك الذين لم يرسّموا ومنهم من سلخ بالمعمل خمس سنوات من عمره وجلده. فضلا عن ظروف العمل التي تفتقر إلى أبسط شروط الكرامة والسّلامة والأمان. وفي أثناء غياب الذويّب المتكرّر عن اجتماعات العمال تدلي بدلوك بخصوص المشاكل المتراكمة والأشكال النضالية المتاحة لحلّها أوللتعجيل بحلّ بعضها، على الأقل. ويلتفّ حولك نفر من العمال يحفّزونك لخوض المعركة نيابة عنهم. لكنك ترفض في كلّ مرّة. كيف تقود عباد الله في عتمة بحر لا قرار له ولا شطّ ؛ داخله مفقود وخارجه منبوذ من النّاس ملعون ؟! ويحاول الذويّب غير ما مرّة، وبمكر خفيّ، أن يعطّل إمكانية انتخاب مكتب جديد للنقابة، وينجح في إقناع العمال بأهمية توسيع المكتب الحالي ليضمّ عناصر شابّة «تضخّ الدّم في عروق أدائنا النقابي». هكذا اعتاد الحربائيّ، عند كلّ ورطة، أن يتفنّن في تزويق الكلام، وبنفس المكر الماهر حرص على أن يضمّ اسمك إلى لائحة أعضاء المكتب النقابي الموسّع، من دون علمك...

وعلى غير إرادة منك تتمسّك بكفّ الشّقراء المنتحبة التي تحتفنك. تسقط قطرات من دموعها على ظهر كفّك ويتناهى إلى سمعك نحيبها الخافت الحار. تشمّ زفر هذا السّائل الذي تنساب جمار نيرانه في عروقك ببطء جارف فتشلّ الدّماغ وتحرّض المعدة على الغثيان...

ثمّ يأزف موعد أوّل اجتماع لكم بمقرّ النّقابة العتيد. أذهلك سُمك الغبار، وحجم القذارة التي تكسو الفضاء بحيطانه الملطخة بالبقع البنيّة وطاولاته المشروخة المائلة وكراسيه العرجاء المتآكلة. أول ما يستقبلك في بهو النّقابة التفاف الشيوخ من العمال المتقاعدين حول طاولات الورق والدّومينو، وما أن تجتاز الأدراج الأولى في اتجاه الطابق العلوي حتى تستفزّك رائحة الكيف النافذة المنبعثة من بعض الغرف الصغيرة المنتشرة على طول الطابق أشبه ما تكون بكوّات ثُقبت في حائط. وتستطيع عبر هذا الممرّ المعتّم سيّء التهوية أن تلحظ فراغ معظم الغرف التي ألصقت بأبوابها بطاقات سيئة التقطيع مكتوبة بخط رديء، لا يخلو بعضها من أخطاء؛ تبيّن القطاع النقابي الذي تحتضنه:*«القطاع الصحّة»*، *«قطاع التعليم»*، *«قطاع الأشغل العمومية»*. ويفضي بك هذا الممرّ إلى قاعة الاجتماع الرّئيسة الفارغة، الآن، إلاّ من متقاعد عجوز غارق في جلباب بنيّ فضفاض؛ آثر أن يخدع قيظ هذا العصر من جحيم العشرين من يوليو بخطف إغفاءة قصيرة بعيدا عن لغط أقرانه من المسنّين. لكن ما أن يفطن إلى وقع أقدامكم حتى ينتفض بخفّة آلية ويستند إلى عصاه وينصرف خارجا من القاعة من دون أن يلتفت إلى أحد؛ لعلّه اعتاد على مغادرة القاعة عند كلّ اجتماع. وليست قاعة المؤتمرات والخطابة، من حيث رداءة الإضاءة والتهوية وقدم التجهيز وفساده، أفضل حالا من باقي الغرف، ولعلّها الأكثر سوءا بما عشّش في أركانها من فصائل العنكبوت واكتسح أجواءها من تركة رطوبة تخلّف أماراتها الصّدئة على أرتاج الأبواب وأقفال النوافذ والخزانات وأرجل الكراسي والطاولات والخردة المتشابكة من بقايا مكروفونات القاعة ومكبّرات الصّوت وأبواق المظاهرات وإطارات صور بعض الزّعماء التّاريخيين للنّقابة الذين أصبحت وجوههم تسبح في بقايا ورق مبقّع أصفر اكتسحه الغمل وذهبت الأرضة بحواشيه...

كان إحساسك بالرّطوبة يطغى على أي توجّس أو خوف وأنت تلج مدخل الكهف المعتّم إلاّ من بضع مصابيح زيتية مثبتة على حافات صخرية مرتفعة كلّ مائة متر. تتمسّك بكفّ مفضّل وتقتفي خطوات فاروق الذي يحرص على أن يبطئ

السّير ويكبّر بصوت مسموع عند كلّ منعرج في مسالك هذه المتاهة الصّخرية الملتوية. وبقدر ما كنتم تتوغّلون في جوف الكهف تبينُ وصلات الأناشيد الدّينية التي تعمّ الفضاء الموحش وتضفي عليه كثيرا من الدّفء والألفة والطّمأنينة. ويفضي بكم الممرّ الصخريّ الضيّق إلى ساحة عراء واسعة يمرح فيها الخيل وبعض العربات وتتوزّعون على أرجائها في كتيّبات صغيرة كثيرة مشكّلة من عشرة أفراد أو أكثر. تلتفّون حول قائد شامل يفقّهكم في أمور الدّين ويعلّمكم كيف تنفّذون الخطط المختلفة وتستخدمون الأسلحة الخفيفة وتصنعون متفجّرات وأحزمة ناسفة...

وتصبح خطط الذويّب مشبوهة ومبعث حيرة الجميع وريبتهم؛ الإضرابين السّنويين الموجهين بعناية من قبل السلطات، والحرص على المشاركة الوديعة في مظاهرات عيد العمال يوم فاتح ماي من كلّ سنة؛ حاملين لافتات شفّافة دوّنت عليها شعارات فضفاضة مستعارة من الأزمة الغابرة لا تتغيّر فيها إلاّ أسماء الوزراء والمعامل وصيغ المطالب:

«بركة من الويسكي...ها الشعب كيبكي»

«هذا شيء ماشي معقول .. .يا وزير يا راس الغول»

«خطفوهُم...قتلوهوم..أولاد الشّعب.. يخلفوهم»

«قولوا لتجّار السّلام: فلسطين عربية ...لا تفاوض لا استسلام، لا حلول ترقيعيّة»

«هذا عيب...هذا عار...مستقبلنا في خطر...

ثمّ تلك المسيرة البلهاء حول بعض أحياء المدينة لساعة من الزمن تشيّعها أنوف مقدّمي الحارات وشيوخها وآذانهم، وعيون العشرات من عناصر الأمن والعسكر وأفراد من الشّرطة السريّة والمخبرين، وليمضي عمّالنا الأوفياء على بركة الله وبمباركة قوات الأمن ورضاها حتّى يبلغوا فروج زوجاتهم آمنين مطمئنين. وهو نفس الجمع الذي يلتفّ كلّ خمس سنوات للتّصويت على نسخ مصوّرة من نفس النوّاب البئيسين، وقبول الثّقة بنفس الوجوه المستوزرة لولاية ثامنة أو تاسعة أو لمدى الحياة. وتخترق ضحكتك السّاخرة الذويّب إلى أعماق الأعماق فيقفز من مكانه ملسوعا غاضبا «وما قيمة النّضال إذا لم نقتد بسيرة زعمائنا النقابيين في ضبط النفس والاقتصار في إسماع أصواتنا بالجلوس على مائدة الحوار والاحتفال بعيد العمال وترديد الشعارات القويّة ورفع المطالب» . ولم تفهم معنى أن يصبح شغل النقابة الشّاغل هو الدّعوة إلى الإضراب وانتظار نتائج الحوار! وإنك لتتساءل منذ التحقتَ «بالنقابة المواطنة»عن جدوى إطار نقابيّ مماثل معظم عمّاله من الأميين الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، وثلثا أعضاء مكتبه المسيّر يكادون لا يفكّون الخطّ، فبالأحرى القدرة على صياغة تصوّر معاصر لعمل النقابة وإشعاعها وقدرتها على تعبئة العمّال وتأطيرهم نقابيا؟! وكان سي علاّل يطفئ جذوة غضبك كلّما ضقتَ ذرعا بامتهان كرامتك وأوغلتَ في رصد مظاهر البهتان والزّور والعبث التي يعجّ بها هذا الإطار النقابي؛ ويوم هدّدتَ بمغادرته إلى «العصبةالديمقراطيةللعمال والصّناع والحرفيين»، وإلى «حزب المجد الاشتراكي الإسلامي» أطلق عقال ضحكته الماكرة المحبّبة وهو يعلن« لا فرق بين حظائر الخنازير»، ثمّ اكتست ملامح وجهه سمات الجدّ وسارع يشجّعك على الصبر والثّقة بالمستقبل وأخذ المبادرة وأعقب معلّقا«لم لا تحملون أنتم، الجيل الشّاب، مشعل النّزاهة؟!»...

واشتعلت النّار وسط السّاحة، وتوهّج الفضاء بترتيل قرآني من الحسين، المقرئ الشّاب الذي التحق بكتيّبتكم بعد سنوات طويلة قضاها ببلاد المهجر ملحقا بإحدى مساجدها. كانوا اقتادوه من غرفة نومه فجر ليلة خريفية إلى مكتب الشّرطة بلوما. ثمّ أدين بعد ذلك بيومين من قبل القضاء المحلّي باستغلاله خطبة الجمعة للتحريض على استخدام العنف ضدّ الزوجات والأبناء. وكان محاموه من الأجانب والعرب استنكروا هذه المحاكمة الجائرة، واعتبروا الحملة الصحفيّة المدبّرة ضدّ إمام مسجد «لوما» الشّاب بمنزلة حرب صليبية قذرة، وسعي حثيث لإخراس كلّ صوت رشيد مؤثّر في الجالية الإسلامية بالمهجر، حتى لو كان هذا الصوت معتدلا مثل الإمام حسين بابا المعروف برصانته وعلاقاته الطيبة مع كلّ

أصدقائه الغربيين ومعارفه وجيرانه. بل إن بيته بلوما يغصّ ليالي رمضان وعيدي الفطر والأضحى بالأصدقاء الأجانب الذين يشاركونه الاحتفاء بهذه الأيام، فينعمون بشربة الحريرة وأكل حلوى الكويلش والشبّاكية والتهام الفطائر وشرائح اللّحم المشوي ...

وعندما لم تنفع محاولات إغرائك بالتّرقيات والحوافز رماك الذويّب بنظرة خبيثة وأعلنها في وجهك حربا ضروسا «سوف أعمل كلّ ما في وسعي ليشوي الحاج لحمك على نار فرنه الخابية. من تحسب نفسك ؟ حشرة حقيرة لفظها فرج قذر!». ولم تتردّد في بعثرة أسنان أمّه على أدراج النّقابة. وكنتَ خبرتَ من فترة وجيزة، بواسطة المِهيدي طليق بديعة، بعد أن افتضح أمرها، علاقة الذويّب الخفيّة بالحاج عشيبة، وكيف أن عبد النّعيم يضطلع بدور الوسيط بينهما، وأضاء هذا الخبر في وجدانك كثيرا من الشّكوك كانت تراودك تجاه تقبّل عبد النعيم الهادئ لنشاطكم النقابي، تراه كان مطمئنا إلى فعالية الذويّب في شلّ عزيمة العمّال وتخديرهم بكلامه المعسول الذي يقطر سمّا! ولكن، ها قد أصبح عاريا، الآن، أمام الجميع، وانفرط عِقد الثّقة الذي كان يزيّن طوقه. فهل للحاج عشيبة أن يطمئنّ إلى وجودك بالمعرض بعدما أبديتَه من صلابة دماغٍ وولهٍ بالمثل والقيم (الفارغة)؟!...الحقّ أنّ تدبير عبد النعيم لم يستغرق أكثر من أسابيع قليلة. وكنتَ تتساءل في حيرة كيف أنّ الذويّب لم يتقدّم إلى مديرية الشرطة ببلاغ ضدّك بعد أن خمّلتَ فمه بقبضة يمينك، بل صار يبادرك بالسّلام مبتسما كأنّ شيئا لم يحدث، لولا أنّ نظراته الملتهبة تفضح ما يضطرم في سريرته من حقد دفين وتوق إلى الثّأر. وكنتَ لا تقوى على ردّ التحيّة والحيرة تضيق بصدرك متسائلا مترقّبا. ومهما احتطت لم تنجح في الإفلات من فخّ الحاج عشيبة وصهره عبد النّعيم...

كان فخّا ملفتا؛ لم يسمحوا لكم، أنت ومفضل وحسين، بلقاء الأمير بادئ الأمر. كنتم فكّرتم في أساليب جهادية أخرى غير العنف تنفع بشكل كبير في بعث أخلاق الإسلام وإشعاعها. وشرعتم تخطّطون للقاء الأمير عن طريق تصوّر بعض الأعمال التطوعيّة مثل: الزيارات المتكرّرة للمرضى، ودعم العاطلين عن العمل بقروض مالية خالصة من الرّبا تسعفهم في حماية أسرهم بإنشاء مشاريع تجارية صغيرة. ثمّ حملات محاربة الأميّة في المدن الهامشية والقرى المنسيّة ممّا يسهّل على الناس قراءة كتاب الله والاضطلاع بأمور الدّنيا والدّين. ويوضح المخطّط العمليّ الذي تتقدّمون به للأمير، في حوالي عشرين صفحة اقترح معظم ما فيها الإمام حسين بابا، كيف يمكنكم تنمية هذه الجهات الفقيرة وتقوية شوكة الإسلام بها من دون إراقة قطرة دم واحدة. وكنتم تعتقدون في أنّ مثل هذه الخطوات كفيلة بتحريك عجلة الإصلاح الصدئة، وتشييد أرضية صلبة لمحاربة الفساد السّياسي والأخلاقيّ، ولنشر العلوم والمعارف، وتحبيب العمل وتحسين ظروفه، وزرع خصال الاعتماد على النّفس والاعتزاز بالدّين الإسلاميّ الحنيف ولغة الضّاد والتّراث العلمي والفكريّ العربيّ الخلاّق، وغيرها من الخطوات الناجعة في بعث شباب هذه الأمة وتجديد حيويّته. وفي أثناء الإعداد لهذا التصوّر كنت تستشعر بعض نفور مفضّل من مثل هذا المنحى السلميّ؛ وهو الخليل القديم الذي تستطيع أن تميّز نبضات قلبه وتقرأ ما تعكسه نظراته الكئيبة، دائما، من تبرّم من الناس وقنوط. وحتى عندما كنتما تلميذين في المدرسة، لم تعهد مفضّل يقبل على معاشرة أحد غيرك أنت ومحسن رحمة الله عليه. كان والد مفضّل العريف عزّوز البوقاديري رجلا شديد التديّن، صارما في تطبيق مقاصد الشريعة على نفسه وأولاده، خصوصا على مفضّل ذكره الوحيد من ضمن ثلاث بنات، فرض عليهن الحجاب فرضا، ولم يكنّ تجاوزن الخامسة من عمرهنّ بعدُ، وكانت صلاة الفجر الجماعية بمنزل البوقاديري طقسا لا يمكن التهاون في إقامته حتى ولو كان ذلك في عزّ البرد والشتاء أو إبّان أشهر الصيف الأولى التي يزامن الفجر فيها أولى ساعات اللّيل. وكذلك حفظ القرآن الكريم في كتّاب القرية أيّام الصّيف، بالنسبة للجميع، بمن فيهم الأم. وعندما اشتعلت انتفاضة الجياع عام 1984 تمّ اعتقاله على خلفية رفضه الامتثال لأمر قائده في استخدام السّلاح لتشتيت المتظاهرين من أطفال المدارس والثانويات، وحوكم من ضمن من أدينوا في هذه الأحداث بمحكمة عسكرية قضت بسجنه سنتين نافذتين وتقهقر في رتبته العسكرية. وانقطعت

أخبار البوقاديري بعد ذلك عن الأسرة إلى أن توصّلوا بخبر موته بسكتة قلبية صبيحة الاحتفال بالذكرى الثّلاثين لعيد الحرية؛ وهو العيد الذي يؤرّخ ليوم استقلال البلاد. انقلبت أحوال الأسرة بعد هذه الواقعة رأسا على عقب. المرأة التي لم تر من الدّنيا غير غرف بيتها وهذا الدّرب الممتدّ أمام نافذتها الموصدة دائما؛ وجدت نفسها مجبرة على الخروج من عالمها الآمن لتتيه بين مخافر الشرطة والعسكر والمؤسسات الإدارية تستفسر عن حقوقها وأبنائها الصغار من أجرة زوجها العريف عزوز البوقاديري. غير أنّ حسرتها كانت عظيمة عندما لفظتها الأفواه والمكاتب بدعوى أن الحكم الثاني الصادر ضدّ المرحوم بعد أن أشهر داخل السجن كفره بدستور الدّولة وتجريمه مبايعة الحاكم، واعتباره ذلك نفاقا وكفرا أسقط كلّ ما كان يتمتّع به من حقوق. وأنّ ما عليها، الآن، إلاّ أن تتدبّر أمر الإنفاق على الأولاد بالشّكل الذي تراه مناسبًا...! وهكذا خرجت الأمّ بخطواتها المتعثّرة وخبرتها المنعدمة بالحياة للعمل خادمة في بيوت الناس ودكاكين التجّار، بينما توزّعت الفتيات الثلاث ما بين مرتادة للمدارس وعاملة في معمل النسيج ومدبّرة لأشغال البيت. ولا شكّ في أنّ رحلة الفقر التي عاشتها، أسرته بعد ذلك، وانحراف أخته الصغرى بهيجة، التي كان من المفروض أن تتابع دراستها بنجاح بعد تضحيات الجميع، كان له عظيم الأثر في ترسيخ كآبة مفضّل، وفي طلبه للعزلة التي كانت تستغرقه شهورا بأكملها لا يكلّم فيها أحدا ولا يكلّمه أحد. وها قد عجّلت مفاجأة لمّ شملك، من جديد، بصديق العمر في «سجن الورود»، إثر محاكمتك بتهمتي سرقة مخازن الحاج عشيبة وتحريض العمّال على العصيان المدنيّ، بتحويل مجرى حياتك نحو متاهة لم تك تعرف عن مسالكها المتشابكة شيئا من قبلُ.

كان مفضّل أقدم العناصر الشابة في الجماعة، وأكثرهم خبرة بسير الأمور داخل هذا التنظيم السريّ المعقّد«الذي يستحيل أن يتبنّى مثل هذه المبادرات السّاذجة» هكذا كان مفضّل يصف مسعاكم. لكن، بعد ما خبره من طبعك العنيد، قرّر أن ينضمّ إليكما، أنت والحسين، عسى تتبدّد كلّ الشكوك التي تحوم حولكما؛ ماداموا يعرفون مدى ولاء مفضّل للأمير، واستعداده المشهود ليكون أوّل المستشهدين. وانتفض فاروق واقفا، ذات عصر، وقد اشتعل وجهه غضبا وأخذ يردّد بشكل هستيريّ مفزع «أستغفر الله العظيم، اللّهم إنا نعوذ بك من الشّقاق والجدل وكثرة السّؤال». واجتهدتَ لتوضّح وجهة نظركم التي لا تروم التّهويش على منهج الجماعة ولا على مخطّطاتها، وإنما مخاطبة عقل المسلمين ووجدانهم طمعا في حقن الدّماء، وإشاعة قيم التعايش والتسامح والتآزر، مصدر قوّة الإسلام عبر تاريخه المديد. وذات فجرٍ انبعث صوت من خلفكم ارتعشت له الفرائص، وخرّت الرّكب. التفتّ...

ها الضّخم الأشقر يقبل نحوك مصحوبا بشاب أنيق حليق يرتدي زيّا عسكريّا ويحمل بين يديه حقيبة جلدية كبيرة. تفسح له الممرّضة فيجلس على مقربة من سريرك. يسحب قلما مضيئا من جيب بدلته العلويّ ويشرع في فحص بياض عينيك. يفتح المحفظة الجلدية ويخرج أسلاكا كهربائية موصولة إلى جهاز إلكترونيّ مثبت في محفظته تستطيع أن تتبيّنه من انعكاس شعاع الضّوء الذي يرسله على حافة السّرير. الأسلاك الكهربائية موصولة أيضا إلى صفيحة بلاتين نصف دائريّة يثبّتها على جبهتك لحظات، وهو يعبث بأزرار جهاز محفظته الإلكتروني:

-«ما اسمك ؟» يخاطبك بودّ ملحوظ من دون أن يرفع بصره عن الشّاشة الإلكترونيّة

-«مفضل...جعفر» تردّ بعد تردّد.

-«مفضّل أم جعفر ؟» يستفسر والبسمة تتّسع على ثغره.

تحاول أن تتذكّر فلا تهتدي إلى شيء! أسئلة الشّاب كثيرة، مركّزة، مسترسلة، تصيبك بالدّوار.....

وتجدك بين يديّ أشقر ضخم. بارز القسمات، مكحّل العينين الزّرقاوين والحاجبين، ذي أنف سمين ولحية كثّة تتدلى على صدره. يختفي داخل لباس أفغانيّ يتكوّن من سروال قندريسيّ وبدعيّة فضفاضة ويعتمر كوفية كبيرة تكاد تحجب وجهه، بينما تشبكُ طوق بدعيته نظارات شمسية حديثة تخفي لون عينيه... من خلفه يصطف بعض حرسه يحملون بنادق

كلاشينكوف روسيّة الصّنع موجّهة نحوكم. استطعتَ أن تميّز من كلام الأمير الأشقر شيئين اثنين ظلاّ عالقين ببالك أمدا طويلا، وبعثا في نفسك من الحيرة والرّيبة ما لا يمكن وصفه: لكنته العربية المتكسّرة الغريبة، وأخطاؤه النّحوية الفاضحة! أخذ يلتفّ حولكم بعصبية حذرة وهو يقرأ من مجلّد صغير بين يديه، يوضّح من خلاله منهج الجماعة ودواعي اختيارها الجهاد حلاّ أخيرا لا رجعة عنه: « تشهد هذه العقود من تاريخ الأمة المسلمة صراعاً محتدماً بين قوى الكفر والطغيان والاستكبار وبين الأمة المسلمة وطليعتها المجاهدة، وقد بلغ هذا الصراع ذروته بإعلان الغرب لحملته الصّليبية الجديدة ضد الإسلام. وقد اتضح من أحداث هذه الحرب ووقائعها مدى الحاجة الماسة لإدراك خطورة عقيدة الولاء والبراء في الإسلام، ومدى التفريط والتقصير في القيام بأمانة هذا الركن العظيم في العقيدة الإسلامية، ثم مدى الخداع الذي يمارسه أعداء الإسلام وأتباعهم وأعوانهم على جماهير الأمة المسلمة بطمس معالم هذا الركن الركين، وإظهار الأعداء بصورة الأولياء ورمي الأبرار بتهم الفجار. هؤلاء الأعداء الذين يشنون حملة تضليل فكرية وعقدية موازية لحملتهم الصليبية العسكرية، سعياً منهم في ترقيع الواقع المهترئ، الذي تمثله أنظمة الحكم في بلادنا، بكلّ فسادها وإفسادها ومذلتها لقوى الطغيان العالمية الصليبية اليهودية. هذه الحملة التي تهدف إلى طمس الحدود الفاصلة بين الحق والباطل حتى يختلط الأعداء بالأولياء. بل وتهدف أيضاً –في محاولتها المحمومة لمواجهة المدّ الإسلامي الجهادي المتصاعد- إلى تزيين واقع التخاذل والتبعية والتخاذل والإذعان لغير الله وتحكيم غير شرعه، جنباً إلى جنب مع تشويه دعوة الحق والجهاد والعزة التي ترفع رايتها طلائع الأمة المجاهدة وأنصارها والجماهير الملتفة حولها...لهذا رأينا أن أهم فتنة –في هذا العصر- تهدد التوحيد والعقيدة الإسلامية هي فتنة الانحراف عن موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، فسطرنا هذه الصفحات إعذاراً وإنذاراً».

ويذوب الأمير وحرسه فجأة مخلّفين وراءهم صدى كلمات وغبار وركام من كتيّبات وأوامر صارمة بأن تتولّوا أنتم الثّلاثة إشاعة تداولها بين العمّال وطلبة المدارس والمعاهد والحرص على توزيعها في المحافل المختلفة: عند بوّابات المعامل والمساجد والملاعب والحدائق العمومية وفي السّاحات والمحطّات والدّروب الخلفية والطّرقات المعتّمة وعلى متن الحافلات العمومية والعربات والنّاقلات...ورأيتَ أن تناقش بعض كلام الأمير بخصوص عقيدة الولاء والبراء، كما كنت تفعل مع سي علاّل، وظروفها وحيثياتها، لكن مفضّل حال، ما استطاع، بينك وبين ذلك وهو يهمس في أذنك «كلام الأمير أوامر لا تقبلُ النّقاش»! وتَردَّد في وجدانك صدى كلمات زوج أمك فنطقت«باستثناء كلام الله، أي كلام آخر يُؤخذ منه وُيترك». وحينما أبديت استغرابك من إمكانية نجاحكم، أنتم الثلاثة، في توزيع هذا الكمّ الهائل من الكتيّبات انتفض فاروق بخشونته المعهودة حاسما الأمر بفظاظة «هيّا، فات أوان الجدل وجاء وقت العمل»...

وتوزّع أعضاء لجنة التفتيش المالي في مرافق المعرض المختلفة؛ أربعة أنفار: ثلاثة رجال وامرأة، تتفاوت أعمارهم ما بين الثلاثين والخامسة والخمسين. أكبرهم سنّا يرتدي معطفا صوفيّا أسودًا إلى ما تحت الرّكب ويتأبّط محفظته الصّغيرة بينما تلمع نظرات عينه الوحيدة السّليمة المتلألئة فطنة وخبثا خلف عوينة زجاجية مستديرة. واجتهدت المفتّشة، التي يبدو أنها أشرفت على سنّ اليأس، للاحتفاظ بأطلال جمال باهتة عزمت على أن تخلّف مكانها لذبول وصفرة وتجاعيد، فتحوّل وجهها، بفعل مستحضرات التجميل، إلى لوحة تجريديّة بالغة الغرابة فاقعة الألوان يصعب تمثّل سماتها. وأضفت الكسوة القصيرة الضيّقة، التي لم تفلح في كبح ما ترهّل من بطنها وأردافها، مظهرا كوميديّا جديرا بتحفيز ضحك العمّال والموظّفين على حدّ سواء، بل حتى مرافقيها من المفتّشين الذين غالبا ما كانوا يسرعون الخطو لكي لا تتمكّن من اللّحاق بهم في أرجاء المعرض الفسيحة وهي تغالب بضيق وعذاب غير محتملين كعبي حذاءيها العاليين! أمّا المفتّشان الشّابّان فقد فاض عن حماسهما ما يضطرم في وجدان أيّ شاب طموح عزم على تحقيق ما عجز أسلافه عن تحقيقه توقا إلى حياة باذخة، وضمانا لتقاعد آمن رغدًا ورفاهيةً... لذلك لم تكن البسمة تفارق شفتيهما الناعمتين وهما يتملّقان الحاج عشيبة، مصدّقان على كلّ

كلامه بحركات من رأسيها، مثل كركوزين، بما قد يسهم في بعث الطمأنينة في قلبه: «غطّ في نومك ياحاج مرتاح البال،كلّ شيء سيكون على ما يرام».....

-«ولكن،كيف وهذه الكتيّبات يمكن أن تعصف بنا في رمشة عين؟» أعلنتَ بقلق وأنت تنزوي في ركن معتّم من درب خلفيّ.

-« ما نفعله الآن أقلّ بكثير ممّا ينبغي أن نفعله لنحظى برضا الله» ردّ عليك مفضّل بثقة وهو يغالب انفعالا قويّا لا مبرّر له. تمسّكت بذراعه ونظرت في وجهه وقلت بدون خوف«ألا يجدر بالأمير أن يكون أسبقنا إلى إرضاء الله؟!» ولكنه تخلّص من ذراعكَ بسرعة وحسم ونظرات عتاب تجلّل وجهه «لا ريب في مسلك الأمير، له البيعة والطاعة وحسب، أفهمت؟ لا أحبّ أن أسمع كلاما معيبا في الأمير بعد اليوم»....

وأعلن القاضي، عصرها، ألاّ مجال للطّعن في قرار لجنة التّفتيش المالي «فهي منتقاة بعناية من قبل مجلسنا القضائي، وهي مشهود لها بالنّزاهة والصّدق والأمانة».

كانت نظرات الذويّب وعبد النعيم تقطر خبثا وشماتة. وعند النّطق بالحكم عليكَ سنة نافذة، مع إرجاع المسروق من مخازن معرض الحاج عشيبة أو أداء قيمته غرامة مالية قدّرها بمائة ألف درهم، اقترب الذويّب من قفص الاتهام حيث تقف وهمس إليك وهو يشير إلى فمه «ربما تكون أسناني نمت من جديد عند خروجك من السّجن»!....

وتنتفض على إثر وخزات حادّة في مكان ما من جسدك. الشّقراء الوديعة تتشبّث بيمناك حذرة مترقّبة، بينما العملاق الوقح يغرز شوكته في وريدك دون رحمة. نظرات قرف ومقت تقطر من عينيه المغلقتين عمشا. يسلّ شوكته بعنف وينصرف. تبادر الوديعة إلى تبليل قطعة قطن بماء كحول. تشرع في تطهير جرحك وهي تتمتم بكلمات تعجزُ عن تمييزها. تغمض عينيك وتصغي إليها. شيء أشبه ما يكون بالرّجاء الحّار ينبعث من صدرها انبعاث جمار النار من جوف بركان مضطرب:«اللهمّ ارحم.»...

وكنتَ تغلي من الدّاخل وأنت تلفي نفسك موثوق الإرادة غير قادر على إبداء رأيك في مسلك الجماعة. يَطمئِن قلبك إلى نهجها الحاسم في مواجهة الاحتلال وأعداء الإسلام ويأبى عقلك أن تتلبّس الجريمة ثوب الجهاد الطاهر! كان مفضّل حذّرك مرارا من مغبّة الاستمرار في ابتكار المخطّطات السّلمية واستنساخ الأسئلة والفرضيات. وذات ظهرِ قيظٍ وبينا أنت غارق في عباب شرودك وحيرتك، انتشلك مفضّل من مكانك بهمجيّة ملحوظة وحلّق بك، عبر مسالك صخرية معقّدة، إلى خارج الكهف. كنتما تتمشّيان صامتين والأمواج الحائرة في مدّها وجزرها تصطدم بصخور المضيق الموحش عندما توقّف فجأة عن السير وقال لك: « لا مكان هنا لمن يعشق الحياة! هذه فرصتك لتقرّر. لتختار. لن أقول: بين أن تموت شهيدا أو أن تقضي مثلما يقضي البعير!»

ونطقتَ على غير إرادة منك:

«كيف يكون شهيدا من يقتل نفسه والأبرياء؟! ألم يقل ربّي«ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيما؟!»

وارتفع صوت مفضّل كما لم يرتفع من قبل:

« ليس هذا قتلا للنّفس، وإنما جهاد في سبيل الله»

ودنوتَ منه أكثر وقلتَ :

«لم، إذن، قال ربّي:«وقاتلوا في سبيل الله» ولم يقل«واقتلوا أنفسكم في سبيل الله»؟

فابتسم ساخرا وهو يعلن:

«يكفيك سفسطة، أشعة الشّمس لا يحجبها غربال!»

غير أنك استمتّ دفاعا عن رأيك وبيّنتَ :

«الروح وديعة أودعها الله أجسادنا، وهو صاحب الحق في نزعها، فمن بادر إلى نزعها بنفسه، فكأنه خان الله في وديعته أو...» وطوّقتكما خيول الفاروق ورجاله وأمروكما بالعودة إلى المخبأ «ثمّة وجود لحوّامة استطلاع تقبل من الجهة الغربية نحونا..هيّا..إلى المخبأ بسرعة»....

وتخبّئ رأسك تحت اللّحاف بعدما يتمنّع عليك النوم وتسبح الغرفة في نور المصباح. تهدأ. تستكين. تصغي إلى نبضات قلبك وأوردة دماغك. تتلاشى من كيانك الأسماء والمعاني. تشرد من جديد في بقاع هذا الفراغ الذي أخذ يتّسع ويمتدّ عظيما هائلا في مسالك وجدانك. وهنا أيضا تيهٌ شاسعٌ ممتدّ كما هناك. هنا أيضا حزن عجوز وبسمة باهتة وفرح مؤجّل. والوجوه، كلّ الوجوه تذبل وتصفرّ وتتساقط دون أن تعبأ بتوالي الفصول وتجدّدها. والأحلام، أيضا، هي نفسها، قصيرة، ناقصة، مشوّهة...وتُراجع السّجلات وتتصفّحها ورقة ورقة. لا أرقام ولا أسماء ولا سطور، بل ولا مداد. ترتعش من فرط الحمّى وتبتلّ وأنت تبحث عن لقبك، عن اسمك، عن هويات الأطياف التي تأتيك وتغادرك آناء اللّيل وأطراف النهار. تتأمّل باستغراب وضعيتك تحت سقف مبيّض. ملامح هذا الوجه القلق المشوّه الذي ينكبّ عليك من فوق. هذا اللّغط غير المميّز لأصوات آدمية وأخرى دقيقة وطنين منتظم حادّ. وتقترب منك امرأة كئيبة وتعلن بحنان «تماسك يا أعزّ أحبابي، لم يبق قدر ما فات». وتمسك فتاة واسعة العينين يديك خلسة، وتهمس في أذنك«يا عصفوري يازين، يا تغريدي الحزين...» ثمّ يخترق شابّ وسيم متلفّع بالبياض جمهرة الحاضرين، وهو يصرخ ويأمر بإخراج الجميع. يحملك السّقف وأنت تسيل على أرضية الممرّ الواسعة، تُفتح الباب فيعمي الضّوء الباهر بصرك. يبدأ ملقطُ الوديعِ يعبث بأوردة دماغك عندما تنسحبُ في صمت وجوديّ عبر نقطة حمراء تسقط على ملاءة السّرير، ثمّ تسيل على رصيفٍ محفّرٍ مبلّلٍ وديانا حمراء تجرف مضغًا وأشلاءً وهياكلَ مفحّمة وغبارًا أسودا خانقا...غبارٌ أسود خانق...غبارٌ أسود...غبار ... غب...

مكتب التّحقيق الجنائي
13 غشت1994

الرقم التسلسلي _34

رقم القضية –15

(رقم النيابة)–21

اسم المتهم– جعفرالطيّب بوشيبة

التهمة–الانتماء إلى منظمة إرهابية، والعمل على زعزعة استقرار البلاد

الضحية– المجتمع المدني

الطلبات–3 طلبات

التأجيلات–3 مرات

الحكم– لم يصدر بعد

السيدة مليكة عبد القادر جيجي

س- اسمك بالكامل وسنّك؟

ج- مليكة بنت عبد القادر جيجي، 50 سنة

س- قرابتك للمتهم؟

ج- أمّه..

س- وضعيتك العائلية الآن؟

ج- طلّقني والده مذ كان في الخامسة من عمره، الآن أنا زوجة سي علال.

س- ماذا تقولين فيما اقترفه ابنك من جرم؟

ج- ابني بريء سيدي، والله بريء .

س- كيف تصرّف معك عندما اكتشف طبيعة المهنة التي تزاولينها...؟

ج- تفهّم ظروف حياتي، اللهمّ لك الحمد.

س- وعندما ارتبطت برجل آخر ؟

ج- كانت بهجته لا توصف عندما اقترنت بسّي علاّل؛ أحبه أكثر من أبيه!...

س- هل كان المتهم يعمل؟

ج- دبّر له سّي علال شغلا «بمعرض الأمان »التّابع لمصانع الحاج عشيبة.

س- كيف كانت أحواله في المعمل؟

ج- ما أن التحق بالمعمل وحالته تسوء من يوم لآخر، والمصائب تلاحقنا...

س- ألم يكن متحمسا وطائشا كسائر أقرانه؟

ج- صحيح سيّدي؛ لا يقلّ ولدي جعفر عن باقي أقرانه حماسة وطيشا.

س- هل كانت له علاقات عاطفية بفتيات في سنه؟

ج- فطنت إلى علاقته الخفية بفتاة. قصّرت الطريق وكلّمتها، لكنّها تشبّثت بموقفها. توسّلت إليها أن تتركنا في سلام، وقبّلت يدها! استجابت لطلبي مكرهة، ورحلت...

س- ما دافعك إلى ذلك؟

ج- طمعت في أن يحظى بحياة جديدة، مجرّدة من ماض قذر يؤرّقه طوال حياته. ليتني لم أفعل.

س- لماذا ؟

ج- ربّ حبّه لفتّاة كان ألجمه، قليلا، وحال دونه والاندفاع إلى هذا الخضمّ الذي لا أوّل له ولا آخر...

س- يقولون أن ابنك كان شخصا عنيفا، سريع الغضب والتهوّر؟

ج - لم يك ولدي يميل إلى العنف أبدا. ولا عمره انخرط في حزب أو منظّمة حتى اشتغل بمعمل الحاج عشيبة. شجّعوه على الانضمام إلى النّقابة، ثمّ دبّروا له مكيدة السّرقة.

س- متى تعرّف على أعضاء التنظيم الإسلامي؟

ج- عندكم آسيّدي، عندكم تعرّف عليهم؛ كنتم تحتجزونه وإيّاهم في نفس المكان!..

س- هل تعرفون صديقا له اسمه جعفر البوقاديري؟

ج- نعم سيدي، أعرف أن له صديقا قديما اسمه مفضّل، لكن لم يسبق لي أن رأيته. لعلّه غرّر بولدي؛ هو من يجب أن يُعاقب...

س- عاقب نفسه بنفسه، فجّر نفسه..!

ج- الحفيظ الله! يكون في عون أمّه المسكينة ...

س- ويكون في عونك أنت أيضا.

ج- ولدي بريء، آسيدي، صحيح أنّه عنيد في الحق ويكره الظلم، لكنّه يكره العنف، أيضا، ويحب الحياة. غرفته بالسّطح تصدح بالأغاني التي كان يعشقها، حتى إنّ من جيراننا من اشتكى إلى سيدي علال صخب الموسيقى!

س- ابنك تغيّر كثيرا سيدتي.

ج- عندكم، آسيدي، تغيّر ولدي... سنة طويلة في "سجن بولهديل" أنهكت روحه. وبمجرّد ما عانقته بعد خروجه، شعرت بأن شيئا ما تغيّر فيه: انكسار صوته ربّما؛ ذبول ملامحه؛ خموله الذي زاد عن الحدّ...

س- بمن كان يتّصل بعد خروجه من السجن؟

ج- الله اعلم آسيدي!...

س- ألم يتغيّر مظهره؟

ج- الكلّ يعرف أنّه لم يغيّر لباسه الروميّ ولم يرسل لحيته...

س- ألم يشتغل بعد إطلاق سراحه؟

ج- دبّر له سي علاّل خدمات مؤقتة هنا وهناك، لكنه دائما ما كان يرفض بدعوى أنّه سيسافر في رحلة العمر. قلنا: مسّته عدوى الهجرة إلى أوروبّا، على متن قوارب الموت، مثلما مسّت جلّ شباب البلد! حلمت به، أعزّ أحبابي، ذات سبات وهو يقاوم أمواج بحر هائج، لا قرار له، من دون أن أستطيع مدّ طوق النّجاة إليه. وفتحت عيني وأنا أنتحب، والغمّ يكاد يكتم أنفاسي...

س- لماذا لم تبادروا لمعرفة ما يدور بخلده؟ ألا تتحمّلون المسؤولية في هذا؟

ج- فعلنا، سيدي؛ توسلت إلى سّي علاّل أن يسبر أغواره ويكشف المستور! لكنّ جعفر لم يمهلنا. خرج ذات فجر يحمل حقيبته ولم نره إلاّ وهو طريح فراشه بالمستشفى...

س- هل سبق أن تعرّض ابنك لأزمة صحية؟

ج- نعم سيدي، الكلّ يعرف أنّه منذ صغره وهو عرضة للحمّى تلتقطه بين الفينة والأخرى. صحيح أنه عندما أدركه البلوغ أخذت تخفّ، بحسب الأخبار التي كانت تصلني عنه من جدّته، لكنه، خلال عمله بمعرض الذي لا يسمّى انهار محموما أكثر من خمس مرّات...

س- هل عندكم ما يثبت ذلك؟

ج- نعم، بكلّ تأكيد، عند أبيه شواهد طبيّة تثبت ذلك...

س- هل توقعين على أقوالك سيدتي؟

ج- نعم سيدي، لكن ما مصير ولدي؟ والله آسيدي ما عندي غيره!...

س- ألا تثقي في عدالة الله؟

ج- ونعمَ بالله...من لنا غيره سبحانه...

السيد علاّل الصّافي

علاّل الصافي 57 سنة.....الباكالوريا القديمة.....تاجر مواد غذائية..... أقطن بحارة دوّار العسكر منذ 15 سنة. ....ارتبطت بأمّه منذ خمس سنوات.......نعم سيدي، كنت أعرف ماضيها؛ هي نفسها حكت لي عنه........ من عاش مع مليكة يوما واحدا لا يمكن أن يفارقها أبدا؛ شفّافة مثل الزجاج!........عهدي به، منذ أن حضر إلى بيتي بصحبة أمّه، هادئا، متفائلا، مفعما بالحيوية والنشاط، يحبّ المعرفة ويعشق الموسيقى!............ أبدا لم يكن عدميّا بأيّ حال من الأحوال................

نحن من انتدبه رئيسا لجمعية الحيّ، وقد أبلى بلاء حسنا في التوفيق بين أهل«دوّار العسكر» الذين يحبّونه كثيرا وباقي سكّان الحارة؛ يمكنكم أن تتحقّقوا من هذا الأمر بأنفسكم. وفي «مرصد الطّفولة» كان من أنشط المتطوّعين؛ إنجازاته مشهود لها بالذكاء والفعالية...والله شابّ ممتاز.................ماذا؟........المكتبة؟...تقصد مكتبتي بدون شك؟ تلك هوايتي الوحيدة، سيدي، شراء الكتب! حتّى وإن كان العمر لن يسعفني لقراءتها كلّها!.......... كلّ الكتب موجودة في مكتبتي... ....ماذا؟ كتب ظلامية ؟!. كيف يمكن للكتب أن تكون ظلامية ؟!......هذه كتب تراثية أضاءت عتمة عصور إنسانية مظلمة؟!...حسبها ذلك؛ إنها تحوي علما بشريّا يُأخذ منه ويُترك بحسب الحاجة والضرورة...... ولكن، سيّدي، ما تكون المكتبة غير هذا التنوع والتعدّد والاختلاف؟!........لست أخفي ما يدعوني إلى الخوف؛ عشت حياتي وسط الناس بوضوح وشفافية وسلام، وكان بيتي مشرّعا دائما في وجه طلبة العلم من كلّ مدن القطر........ ماذا؟ في حوزتي كتب تصنع الإرهاب! ....لا شك في أنّك تمزح؟!........وما يفيد قولكم سيّدي غير ذلك؟! هذه الكتب موجودة من مئات السّنين في رفوف المكاتب حتى اصفرّت وأكلتها الأرضة، ولو كانت تصنع إرهابيين، كما تدّعي، لغاصت الأمة بهم منذ القدم. ليست المكاتب ما يصنع الإرهاب يا سيدي الفاضل، وإنما الاستبداد والظلم والفساد وغياب العدالة الاجتماعية وسيادة قانون الغاب أرجاء الكون، قانون الأغنى، الأقوى، الأقدر.......أقصد، مثلا، ما تفعل إسرائيل بالأبرياء العزّل من أطفال وشيوخ ونساء فلسطين وجنوب لبنان، انظر كيف تمضي فيهم تقتيلا وتشريدا وتجويعا وهدما للمنازل وجرفا للأراضي المزروعة وقلعا للزيتون والنخيل ومصادرة للأموال والمياه........ثمّ هذا السّور العنصريّ الذي أقامته على تراب فلسطينيّ، وحوّلت حياة الناس بسببه إلى جحيم يوميّ على الرغم من تنديد العالم وصدور قرار بإزالته........عذرا سيدي، أنت تسألني وأنا أجيب............. أليس الجواب بدون تعليل جوابا ناقصا؟......عذرا، ليس في نيتي توجيه مجرى التّحقيق؛ مجرّد فضفضة احتراق لا غير.................لم أتستّر على جعفر أبدا؛ طوال الفترة الأولى التي قضاها في بيتي كان شعلة متوقّدة حيويّة وإيمانا بالمستقبل. وبعد أن تمّ اعتقاله، ظلما، بتهمة اختلاس أغراض بمعرض الحاج عشيبة تغيّر كلّ شيء فيه؛ انطفأت نظراته المتوقّدة وخبت بسمته وغاصت روحه المرحة في أعماق سحيقة من التذمّر واليأس... ....والله، لو كان التذمّر واليأس ممّا يُفترض تبليغ السّلطات عنه لكان علينا أن نعتقل البلد بأسرها؛ كلّ البلاد العربية متذمّرة متشائمة يائسة، إلا الحكّام طبعا! وما العيب في ذلك؟ لنتصوّر أحوال البلد لو كان الحكام أنفسهم يائسون متشائمون؟!...................لا أقصد شيئا، أفكّر بصوت مرتفع وحسب..............أنت أعلم، سيّدي، القانون العادل لا يستند في أحكامه على النوايا، وإنما على الوقائع والحجج والبراهين؛ هل ثبت يوما أنني أسهمت في عمل ضدّ بلدي أو حتى حرّضت عليه؟..................هو نفس ما قلته في تحقيق سابق؛ بعد خروجه من المعتقل لم يعد جعفر مرحا طموحا كما عهدته، يطبق الصّمت عليه ساعات طوال. يخبرنا بأنه سوف يقضي أيّاما مع صديقه مفضّل العائد لتوّه من الخارج. يقضي أيّاما وليال خارج البيت، يعود بعدها حليق الرأس بلحية خفيفة ووجه شاحب مرهق، من دون أن ينعكس ذلك على جسده الذي كان يزداد قوّة ومتانة. يحلق لحيته ويستأنف حياته العادية بيننا........أعترف أنّ صمته المريب ونظراته الغائمة

الشّاردة بعثت فينا، أنا وأمّه، شعورا غامضا بالحيرة والتوجّس، لكن معرفة ما يدور بخلده كان أكبر من قدراتنا، إذ إن اللّحظات التي سمح لنا فيها بالاقتراب منه وسبر أغوار نفسه كانت قليلة جدا........... مثلا، عندما طلبت منّي مليكة أن أكلّمه، وأحاول معرفة ما يؤرقه. صعدت إلى غرفة السّطح حيث يقيم. أوّل ما لفت انتباهي هو خلوّ جدران الغرفة من صور كانت تزيّنها لكلّ من ماجدة الرّومي، مطربته المفضّلة، وشعار فرقة الريال مدريد الإسباني وبعض لاعبيه من أمثال رونالدو وزين الدّين زيدان، وكذا غياب المسجّل الكبير الذي اشتراه من أوّل أجرة تسلّمها من «معرض الأمان» وركام الأسطوانات التي كان يصفّفها، بانتظام، على حافة النّافذة الواسعة. دخلت عليه فألفيته ممدودا على أريكته الصّفراء العتيقة يقرأ في كتاب. باغتّه بالسّؤال :

- هذا كتاب موجود في مكتبتي ؟

- حقّا؟!. «معالم التّغيير» للشهيد محمد السّلالي، استعرته من صديقي مفضّل؟

- نسخة نادرة في طبعتها الأولى ؟

- هل قرأته ؟

-ومن لم يقرأ كتب السّلالي، وهذا الكتاب على وجه الخصوص؟

-كتاب عظيم لا يرقى إلى حقائقه شكّ!

- باستثناء كتاب الله، كلّ كلام آخر يؤخذ منه ويترك.

-هذا كتاب يدعونا إلى أن نأخذ بالإسلام كلّه أو نتركه كلّه، ألا تفهم ؟

-مهلا، لا داعي لكي تنفعل بهذا الشّكل؟

-لا أحتمل أن ينكر إنسان حقيقة ساطعة ؟

-منذ متى أصبحت محاورتي لك نكرانا للحقيقة؟ ثمّ ما هذه الحقيقة السّاطعة التي تتحدث عنها؟

- حقيقة أنّنا نعيش جاهلية ثانية، كما يقول السّلالي، ولا سبيل إلى أخلاق الإسلام إلاّ بنبذ حضارة الغرب.

-أخلاق الإسلام حاضرة في كلّ مظاهر حياتنا، ولكنّنا لا نرى إلّا الجانب المظلم من الواقع.

- تقول هذا لأنك لا تغادر مكتبتك إلاّ إلى دكانك؛ لو كنت تجوب الشّوارع والطرقات، وتسهر اللّيالي لرأيت من المنكر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت!

- وما الذي يجبرك على سهر الليالي، لترى ما لا تحبّ أن تراه؟!

-لستُ مجبرا، على أيّة حال، أن أختار حياة النّعام!

-اِصغ إليّ جعفر... انظر إلى أحكام الإسلام الشّرعية؛ سوف ترى أن بها من التيسير ما لا يوجد في أحدث التشريعات القضائية الغربية، وما ذلك إلاّ لأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه من تحريض على ارتكاب المعاصي واقتراف الشّرور، وقد خلق النّفس بنوازع خيرها وشرّها، وخيّر الإنسان في تحديد مصيره. ثمّ لم، في نظرك، خلق الله الجزاء والعقاب والجنّة والنّار لو لم يرغب في جعل الإنسان مسؤولا عن مصيره في الاختيار: سبيل الفساد أو طريق الصلاح؟ حتى أنّه تعالى وسم الرسول بالجهل عندما استاء من كُفر النّاس وجحودهم ، فقال :«لو شاء الله لجمعهم على الهدى، فلا تكوننّ من الجاهلين.»

- لو كان الحال كذلك، ما فائدة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، إذن؟

-أعتقد أن مفاهيم الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، في عصرنا، ينبغي أن تستند في فعاليتها إلى مفاتيح التقدّم والتحضّر والسّلطان: العلم والنظام والعمل. ينبغي أن نستعير من تاريخنا المشرق، ومن الأمم المنظّمة عادات العلم والنّظام والعمل المخلص الدؤوب.

- بل الحلّ في أن نجعل القرآن مصدر معرفتنا الوحيد، أن نقاطع مصادر الحداثة الخبيثة ومعارفها.
-كيف ذلك وقد أصبح العالم جزءا لا يتجزّأ من الحداثة؟ لعلّ من الأفضل أن نتعايش مع هذه الحداثة، وكما هو رأيي دائما، نأخذ ما يناسبنا ونترك.
-حلّ ترقيعيّ لن يفيدنا في شيء.
-كلّ شعوب الدّنيا وأممها تأخذ من الحضارة ما يناسبها وتترك، لماذا نكون، نحن، بدعا في ذلك؟
- لأننا لسنا مثل شعوب العالم «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله».
-وهذا يعني أننا أمة حيّة، منفتحة، تتعايش مع حضارات الناس، تعمل، تحاور، تقنع، وليست كيانا منغلقا على نفسه، منعزلا، عاجزا عن الحوار والتّعايش والإقناع..
- عجبا كيف تلبسون الباطل لباس الحق!
-إنّ النّظرة الضيّقة لرحابة النصّ القرآني تعجّل، دائما، بسدّ باب الحوار!
- هذا ليس حوارا وإنما جدلا، وقد نهانا الله عن الجدل.
-بل دعانا إلى إجادته، حتى في مواجهة من لا يؤمن بما نؤمن به «وجادلهم بالتي هي أحسن».
ونادت أمه :
-هيّا إلى مائدة العشاء.

أذكر أنّ صمتا رهيبا هيمن على البيت مساء ذلك اليوم؛ صمت لم أفكّ شفرته إلاّ بعد أن بلغنا نبأ اعتقاله.......لم يكن سهلا علينا أن نتنبّأ بشيء. أسلوبه بعد ذلك الحوار اتّخذ منحى مغايرا........لم يعد، مثلا، في غرفته أثر لكتاب أو صحيفة. بل لم يك يقيم في الغرفة إلاّ في ساعات المساء الأخيرة؛ يتعشّى، يدردش مع أمّه من دون حتّى أن يرفع عينيه إليها، ثمّ يتسلّل إلى غرفته بالسّطح. دبّرتُ له في بداية السّنة الماضية أكثر من عمل لكنّه صار يتذمّر من الحديث عن العمل والكسب. في حوار دار بيننا قال أنّه يفكّر برحلة طويلة. سألناه إلى أين؟ قال رحلة مع صديقي مفضّل إلى مكان أفضل! حسبنا أنه يتحدّث عن الهجرة عبر قوارب الموت إلى إسبانيا أو إيطاليا. حاولت أمّه أن تقنعه بضرورة التروّي في اتخاذ مثل هذا القرار. أفهمَته أنّها تستطيع تدبير المال الكافي ليهاجر بطريقة شرعية. طمأنها بأن الموضوع لم يحن وقته بعد. وهكذا كان الحديث عن الهجرة وعن أحواله يتلاشى في ثواني معدودات من دون أن يخلّف في نفوسنا أثرا عظيما بالخطورة التي تستدعي القلق.........اختفى شهرا كاملا..........حرّرنا محضرا حول غيابه في مركز شرطة دوار العسكر، وفي مديرية الأمن الوطني بعد أن يأسنا من العثور عليه، وتحصّنّا بمشيئة الله................ أنتم من أخبرنا باعتقاله، سيدي...... توصّلنا باستدعاء من مديرية الأمن الوطني، ثمّ من النيابة العامة، ومن مكتب الاستعلامات التابع للمحافظة.....لا، سيّدي، ليس لي إضافات.........طبعا أوقّع.

فتّة بنت سعيد هيّوط

فتّة بنت عيسى هيّوط... 24 سنة ونصف...
قريبة مليكة؛ أقصد صديقتها...
كما تحبّ: صاحبتها...
عفا الله عنّا؛ اللهمّ لك الحمد...
يشهد الله على صدق توبتي، أما العبد فلا يرحم حتّى لو أشعلت أصابعك لهيبا في حضرته...
مثل أخته. قل: أكثر من أخت...
يحكي لي عن كلّ شيء يخصّه، وأنا أيضا...
نعم كلّ شيء...

غالبا ما كنت أسأله عن أحواله.. مثلا:سألته يوما عن تلك الحمرة الشفّافة التي تنتشر في بياض عينيه العسليتين، فأخبرني أنّها مخلّفات الحمّى الدّماغية التي أصابته عندما كان لا يزال طفلا. ثمّ إنّه روى لي وقائع متفرّقة عن طفولته، وكذلك فعل بخصوص جدّته الرّائعة؛ حكى كثيرا عن حنانها ووداعتها ورقّتها، وكذلك عن المرحومة ذكرى، حبّه الأوّل؛ اغتمّ عندما وصلنا خبر وفاتها بمستشفى العاصمة بعد محنة طويلة مع المرض. كنّا في خضمّ الاستعداد لإحياء حفل زفّ أمّه إلى سي علاّل، عندما ماتت الفرحة في جوفه لسماع الخبر واختلط ضحكه، المسكين، ببكائه...

أعرف الكثير عن هوس جعفر بالطيور منذ صغره؛ طالما رافقته ساعات طوال في «سوق الغجر» حيث تُعرض عشرات الطيور مختلفة الأحجام والأشكال والألوان في أقفاص ملوّنة؛ تبهج المكان بتغريدها الشجيّ. كنّا علّقنا أزواجا منها ببوّابة غرفة السّطح، لكنّ جعفر لم يتحمّل تغريد بعضها، كان يقول: إنه تغريد المقهور الحزين! عدت يوما من العمل فوجدت الأقفاص فارغة؛ عرفت من مليكة أنه حرّرها، ولم أشأ أن أسأله لماذا فعل.كان مرهف الإحساس لدرجة تثير الضّحك أحيانا !

طلبتَ، سيّدي، أن أقول كلّ ما أعرف، وهذا ما أفعله، بالضبط.

نعم، كلّمني أكثر من مرّة عن صديقيه مفضل ومحسن، حكى لي عن قِدم صداقتهم ومتانتها، عن مغامراتهم الصّبيانية العابثة، وكذلك عن الصّفقات التجارية التي كانوا يعقدونها مع زنيفح، حارس مدرستهم الخبيث، الذي يكلّفهم ببيع الأكياس البلاستيكية للمتسوّقين مقابل نسبة معلومة من الأرباح، وكيف كانوا يهتبلون حصّة التربية البدنية للذّهاب إلى السّوق، ومساعدة المتسوّقين في حمل أكياس الخضر والفواكه مقابل دراهم معدودة يبتاعون بها سندويشات وحلويات طحينية، ويظفرون بتذاكر لحضور مباريات فريق الكرة *«المغرب أتليتيكو تطوان»*بملعب«سانية الرّمل» الفسيح...

كان جعفر غالبا ما يذكر بحرقة وقائع موت صديقه محسن، وما آلت إليه أحوال أمّ مفضّل وأخواته بعد انهيار أسرتهم. وبعدما التحق بالإعداديّة وحصل على «شهادة البروفي»غادر جعفر المدرسة ومضى بحثا عن أمّه...

حسنا؛ في تلك اللّيلة المشؤومة، ما أن وطأت أقدامنا رصيف الشّارع المقابل للفندق حتّي روّعنا دويّ انفجار رهيب! وفي غمرة فزعي دفعني جعفر بعيدا عنه، وانطلق في اتجاه موقع الانفجار وهو يصيح مناديا: مفضّل..مفضّل...

من يومها وأنا مذهولة عاجزة عن فهم ما حدث، حتّى أخبرتمونا بحقيقة انتمائه إلى منظّمة محظورة هو وصديقه مفضّل.
لم أر، والله، رقعة وجه مفضّل هذا أبدا.

الكلّ يعرف أنّ جعفر لم يك مخلوقا عنيفا. صادق، دائما، مع نفسه ومع النّاس، صريح صراحة جارحة في كثير من الأحيان، ولكن أشدّ ما كان يكره : الزّور والظلم والفساد!...

كنت أتّقي، ما استطعت، الخروج معه إلى الأماكن العامة التي يكثر فيها الاكتظاظ؛ تجده لا يتوقّف عن انتقاد كلّ سلوك ينعته بغير المتحضّر، وأشهد أنه كان كثير الاستياء ممّا أخذت تعرفه المدينة من اكتظاظ وفوضى وانتشار للمتسوّلين والمجانين والأفّاقين والبغايا، اللهمّ اعف عنّا، واللّصوص...

نعم سيّدي، كان يحكي لي عن كلّ مشاكله في الشّغل وداخل صفوف النّقابة، يبغض الذويّب وعبد النّعيم ويعتبرهما كلبي حراسة لا سبيل لنظافة المعرض والنّقابة إلاّ بإزاحتهما. أمّا الحاج عشيبة، لم يك يطيق سماع اسمه، وحينما كنّا نلوك نبأ اعتقاله طيلة شهر رمضان بتهمة اغتصاب طفلة إحدى خادماته، وضبطه متلبّسا في حالة ارتشاء، كان جعفر يبتسم بسخرية ويعلن: «لا تفرحوا كثيرا، للفساد شياطين تحميه»! ويتمّ إطلاق سراح الحاجّ عشيبة، بالفعل، بعد ذلك بأيام...

لست أدري ما معنى كلامه، لكنّني أحكي لكم ما أعرف...

أبدا؛ لم يسبق له أن أرسل لحيته أو كلّمني في أمور بخصوص الدّين. غالبا ما كان يصلّي فترة زمنية معلومة وينقطع عن الصّلاة. ثمّ يعود ليواظب عليها فترة من الوقت ويتوقّف من جديد! وعندما افترقنا آخر مرّة كان تاركا للصّلاة منذ حوالي ستّة أشهر، وكان سي علاّل وأمّه يذكّرانه بمغبّة ترك الصّلاة، ويقنعها بإنّه سوف يبدأ عند مطلع شهر رمضان...

لم أكن برفقتهم أيّامها لأعرف ما حدث...

لا؛ لم يعتد أصدقاؤه على زيارته في المنزل، ربّما كانوا يلتقون به في مقهى أو في النقابة، لكن في البيت، لا أذكر أن أحدا زاره باستثناء مزيود...

لا أنكر أنني أحبّ جعفر، لكنّ أمه حالت دون ارتباطنا؛ ادّعت في البداية أنني أكبره بخمس سنوات، ثمّ قالت القبيحة أنني لا أصلح لولدها...

نعم لأنني كنت كذلك. ولكن، الله شاهد؛ عندما تحرّرنا من «رموش العروس»، بنية العيش هنا في «تمودة»، كنت على مسافة خطوة من التّوبة؛ بعث فيّ حبّ جعفر والجوّ العائلي الهادئ الذي ألفته في بيت سي علاّل، شعورا قويّا بالعفّة والكرامة؛ أصبح الماضي الشّنيع الذي خلّفناه وراءنا مجرّد كابوس تتبدّد ملامحه شيئا فشيئا. صرت أمنّي النّفس بزواجنا المرتقب، خصوصا بعدما أصبح جعفر ينفق من أجرته ما يكفي ويوفّر عندي الجزء المتبقّي استعدادا لليوم الذي نجتمع فيه تحت سقف واحد. أنا أيضا كنت أشتغل «بمخبزة الرّبيع» على مقربة من «المحطّة الطرقيّة»، وأوفّر كلّ فرنك أكسبه حتّى أستكمل (شوار العروس)*. وفي ليلة؛ بينا أنا وجعفر في خلوة عشق بدكّان سي علاّل إذا بمليكة تنبعث معنا ماردا هائجا؛ ازرقّت شفتاها، وانتفخت أوداجها، وتضرّج وجهها حمرة قانية...لا أذكر تفاصيل كثيرة من تلك الليلة، لكنني أعرف جيّدا أنها ليلة ركوبي، من جديد، أسرّة القذارة... كانت خيبتي في مليكة عظيمة! تعرف جيّدا ما قاسيناه في جحيم «رموش العروس»؟! أولم نك شركاء في حلم السّقف الآمن والأسرة ملمومة الشّمل والسّرير العفيف؟! ما أسرع ما يتبدّل الإنسان ويتنكّر، مثل الحرباء تماما!..

هي ذي، سيّدي، الأحداث التي أذكرها جيّدا ولا يمكن أن أنساها...

حسنا، ليالي الصيف نسمر بالسّطوح إلى ما بعد منتصف الليل. كان جعفر يعشق ماجدة الرّومي؛ لا يتوقّف عن ترديد مقاطع من أغانيها الشجية؛ ثمّة أغنية أحبّها كثيرا كنّا نعتبرها أغنيتنا« عم يسألوني عليك النّاس، كانوا يشوفونا سو...»...

معذرة، سيّدي، أمرتني أن أحكي عن علاقتي بجعفر وكيف كانت حياته بالبيت، وأنا أفعل...

سبق أن قلت: لا أحد من أصدقائه يزوره بالبيت باستثناء مزيود...

نعم هو؛ كان يسكن فوق محلّ بقالة صغير على مقربة من سوق المواشي...حتّى هو رافقنا من جحيم«رموش العروس»إلى هنا...

يشتغل، الآن، حارسا ليليّا للسيّارات «بمرأب بغداد» الواقع خلف « شارع فلوريدا»...

اعتاد أن يقضي معه وقتا طويلا بغرفته في السّطح، لا شكّ في أن صداقتهما امتدّت حتّى بعدما انتقلتُ للعيش مع صاحبتيّ نزيهة وفطنة في ضواحي «قرية ميدنا السّياحية»...

أنت تعلم سيّدي، كلّ التّحقيقات التي أجريت معي سواء من طرف الأمن أو الشرطة القضائية أو شرطة مكافحة الإرهاب أثبتت ألاّ علاقة لي بكلّ ما حدث...

والله، آسيدي، حتّى جعفر بريء...ربّما أخذوه على حين غفلة منه...قد يكون فراقنا أثّر فيه...

لا يمكن أن أصدّق! من يصدّق أن يتورّط جعفر الحنون الذي لا يقوى على مشاهدة ذبيحة العيد في عمل دمويّ مثل هذا ؟! لا أحد من معارف جعفر يمكنه أن يصدّق هذا، لا أحد!

أرجوك سيدي جعفر بريء، والله آسيدي بريء...

حاضر؛ سأوقّع وأنصرف، ولكن...

أمرك.

* عدّة الملابس التي تشتريها العروس قبل أن تزفّ إلى عريسها، وتتضمّن قفاطين وجلابيب وطقم النوم وعطور ونعال وغيرها.

مزِيود

اليزيد بن المصطفى ناهية، 30 years ، ملقّب بمزيود.

ربّما لأنني هزيل البنية، أو غبيّ لا أعرف من أين تُأكل الكتف.

Unmarried والحمد لله!

الثالثة جامعة أدب إنجليزي.

security agent ؛ أقصد حارس سيارات«بشارع المقاومة».

ولدت في «رموش العروس» وترعرعت بها إلى أن تعرّفت على جعفر وأسرته. هربنا من مافيا الدّاهي إلى هنا...

Ok...لا داعي لاستعمال هذا النّعت مرة أخرى...

تعرفت على جعفر عصر صيف قائظ بقلب مدينة«رموش العروس». كان يتّجه صوب ماخور الدّاهي ولا طامو. اعترضت طريقه وحذّرته من خطورة الوضع. لم يعبأ بما قلت له. عرفت بعد ذلك أنه جاء يبحث عن أمّه.

في«رموش العروس»كانت أمّه مليكة تعزّني كثيرا. تستضيفاني، هي وفتّة، بغرفتها في «فندق زبِيطَا» الحقير حتى وقت متأخّر من اللّيل؛ أتعشّى معهما ونلعب أدوارا من الورق وتنفحاني بضعة دراهم وما استغنى عنه زبائنهما من سترات أو قمصان أو Shirts...

سوف أحكي عن كلّ ما أعرفه بخصوص جعفر...

طيب، وسأعرّب حتّى يتسنّى لكم كتابة المحضر. تخرج مليكة وفتّة للعمل. نخطّط أنا وجعفر للهروب من«رموش العروس» من دون أن يتمكّن الدّاهي وزبانيته من اللّحاق بنا. نهتدي إلى أن أفضل وسيلة للإفلات من رجال الدّاهي هو الاتجاه نحو الجنوب؛ عكس ما سوف يقدّرون، بحكم أصول فتّة الشّرقية، وانتماء مليكة إلى الشّمال. وعندما نصل إلى «يامندا»، عتبة الجنوب، يسهل علينا حينها الإبحار عبر المحيط إلى مدينة «تمودة» الساحلية من دون أن نتعرّض لخطر القبض علينا عن طريق البرّ من قِبل عصابة الدّاهي وفُلول معاونيه...

سألتني عن علاقتي بجعفر، وقد ابتدأت من هنا.

لم يحظ جعفر في حياته بأكثر من ثلاثة أصدقاء: مفضّل، محسن وأنا. وقد أخبرني فور خروجه من السّجن أنه التقى هناك مفضّل A Friend Of childhood...

عذرا سيدّي، لست أتعمّد ذلك.

حسنا،لا داعي لاتخاذ أيّ إجراء، أعدك بألاّ أتلفّظ كلمة إنجليزية أمامك بعد الآن...

Good، كنا توقّفنا عند لقائه بمفضّل الذي لا شكّ عرّفه بالجماعة فأصبح ميله إلى السّهر قليلا؛ اكتشفت ذلك منذ الأسبوع الأوّل لإطلاق سراحه؛ لم يعد يزورني مساء كلّ سبت بمسكني كما كان يفعل من قبل...

لا شيء مهمّ؛ نستمتع بالموسيقى، قليلا، وندخّن بعض اللّفائف...

أذكر سيّدي أنّه كان يعشق صوت المطربة ماجدة عشقا جنونيّا!...

أنت تعلم شباب Youthfulness!...

Sorry لن يتكرّر سهوي. قلت: إنني انتبهت إلى برود مفاجئ اعترى شخصيته المتفتّحة للحياة دائما. لم يعد يزورني إلاّ نادرا. أصبح يسفّه بهجتي العارمة وتطرّف مرحي، بل صار يزجرني منفعلا كلما نطقت حرفا بالإنجليزية في حضوره، تماما كما تفعل الآن سيّدي...

معذرة أردت فقط أن..

استغربت تلبّد إحساس جعفر وبروده تجاه بعض مظاهر الحياة؛ لم يعد متحمّسا للخوض في نقاشات سياسية أو دينية معي أو مع صهره سّي علاّل، مثلما لم يعد يستشيرني بخصوص مبادرات تطوّعيّة لإسعاف العجزة والأيتام والمعوزين، كما اعتاد أن يفعل منذ أن عرفته؛ لم يكن درج مكتبه المتداعي يخل من مثل هذه المشاريع التي دأب على أن يدوّنها في دفاتر مدرسية، ويعنون كلّا منها بحسب موضوعها: «كراسة جدّي: أو المركز الجهوي لحماية العجزة»، «كراسة الشباب:الجمعية المواطنة للشباب المعطّل»، «كراسة الطفولة:المرصد الجهوي لحماية الأيتام والمشرّدين والأطفال في وضعية صعبة» وكان جعفر نجح، فعلا، قبيل إدانته ظلما بتهمة سرقة معرض الحاج عشيبة، في أن يؤسّس هذا المرصد بمساعدة جماعة من أصدقاء سي علاّل المثقفين وبشراكة ودعم من مؤسسة خيرية أجنبية، وأصبح المرصد يأوي فعلا حوالي 900 طفل مشرّد يوفّر لهم المأكل والمشرب والمبيت، و يحرص على تعليمهم حِرفا تساعدهم على الاندماج في المجتمع. ربّما كانت هذه أكثر أيّام جعفر نشاطا وحيويّة؛ تفيض البهجة عن نظراته وهو يصف مدى تعلّق أطفال المرصد به، وكيف أن دخوله عليهم صبيحة كلّ أحد يبعث في أرجاء المرصد مهرجان تقبيل وتهليل وعناق...؛ فهو الذي يعكف على حلّ مشاكلهم داخل المرصد، والدّفاع عن المظلوم منهم، وتنظيم رحلات وزيارات ممتعة مذهلة يرفّه بها عنهم جراح اليتم والقهر. بل، هو من يسهّل عليهم عمليّة الاتصال بأهلهم وذويهم كلّما حاصرهم القنوط أو التقطهم المرض أو استجدّ في حياتهم طارئ...

لا أشكّ في أنّ تداعيات إغلاق المركز، وتشريد مئات الأطفال بسبب توقّف المانحين الأجانب عن تقديم المعونة حتّى يصدر حكم في قضيّة اختلاس ميزانية المركز السّنوية، أثّرتPowerfuly على روحه المرهفة بشكل خطير. أما تجربة السّجن فكانت القشّة التي قصمت ظهره. عجبا كيف ابيضّ شعر رأسه الأسيويّ النّاعم، وأصبحت سحابات كدر ومقت تجلّل عينيه العسليتين وتزكّي بسمة خاطفة ساخرة ساخطة!

لأنه فقد في الحبس كثيرا من وزنه، وأضحت وجنتاه وعظمتا كتفيه بارزة بشكل محزن، وأتصوّر أنّ غدّته الدّرقية تكوّرت، قليلا، وبدت أكثر بروزا في عنقه من ذي قبل، ثمّ توالت عليه نوبات الحمّى بصورة أخطر من الأوّل. وبعدما كان يحبّ إرسال شعر رأسه الأسود النّاعم، أصبح يحلقه على(الزّيرو)!...

لعلّ الشّيء الوحيد الذي لم يتغيّر فيه هو طبعه المبادر إلى مواجهة الظّلم. أعرفه جيّدا؛ يستنكر بانفعال لا يوصف وقوع الباطل على الآخرين، فكيف يتقبّله على نفسه؟!...

أقصد: أنه قد تكون لحظة اليأس القاهرة هذه سهّلت عملية استقطابه من قبل الجماعة إياها...

أنا قلق، والله، على حالته الصحيّة أشدّ القلق...

طبعا حزين، بل حزني على ما يحدث له، الآن، لا يمكن أن يوصف...

لن أصدّق أبدا كلّ ما يقال عنه في الإذاعات والجرائد، أبدا...

حتّى لو تمّت إدانته، لا قدّر الله...

أنا متأكّد لأنني أعرفه جيدا؛ كتلة متحرّكة من العواطف النبيلة...

الكلّ يعرف أنّني دنيويA man Of Life...

ماذا أضيف؟ «ما الحياة؟ إن هي إلاّ ظل عابر. إن هي إلا السّاعة التي يقضيها الممثّل على ملعبه، متخبّطا، تعبا، ثم يتوارى ولن يرى، إن هي إلا أقصوصة يقصها أبله بصيحة عظيمة، وكلمات ضخمة، على حين أنها خالية من كلّ معنى»*...

عفوا سيدي،كيف أسوق عليكم الهبل، إن هي إلاّ زفرة...» شكسبير.

صدقت سيّدي، ينبغي أن أعرض نفسي على طبيب مختصّ!

حالا أوقّع على أقوالي

الطيّب السّويهلي بوشيبة

الطيب السّويهلي بوشيبة...

56سنة...

طليق التي لا تسمّى، وأب المتّهم جعفر...

نجّار أرابيسك؛ ورثنا الصّنعة عن جدّ أبي المعلّم المختار السّويهلي بوشيبة؛ النجّار الخصوصيّ لحاجب الأمير مولاي المهدي...

متزوّج آمولاي...

لي بنتان وولد آخر من رحمة زوجتي الثانية...

عرفت آمولاي، وما ينتظر أن تجرّ علينا هذه الفاجرة غير المصائب والفضائح؟ والله الذي يحلف به الرّجال ما زجّ بولدي في هذه المصيبة غير فضائح أمه وخاله الماسخ؟

قلبي يغلي حقدا على هذه الكلبة التي غرّرت بالولد فهرب من بيت والده وطاش طوال هذه السّنين في بقاع لا أهل له بها ولا معارف.

بحثت آمولاي، بحثت عنه في كلّ مكان...

أشعرت السّلطات وأخبرت عنه في الجرائد والإذاعات، حتّى أنني ظهرت في التّلفزيون«ببرنامج مخفي»، ألا تذكر وجهي؟...

آ، لا تشاهد التلفزيون...

كان ذلك مساء الفاتح من شعبان، قلت في نفسي: قد يرقّ قلب ولدي جعفر ويعود إلى البيت عندما أخبره بحال جدّته وعمّته، أو ربما يكون أحد من المتفرّجين عرف دياره فيتّصل بي. لكن دون جدوى.

توقفت عن البحث منذ سنتين فقط؛ أصبحت قوّتي ضعيفة، كما ترى، لا أقوى على التحرّك كثيرا بسبب آلام الظهر. انظر، حتّى أنّني ألفّ حزاما حول عظام خصري...

معذرة، رغبت فقط أن تتأكّد من صدق كلامي. والله آ مولاي حتى الورشة يديرها الآن عليّ ولد أخي التهامي السّويهلي بوشيبة. جدّته المسكينة ماتت بحسرتها عليه، أما عمّته لطيفة فلا حديث لها إلا عن جعفر وموطن جعفر وأحوال جعفر. صحيح أن البيت مملوء بالأولاد، ولله الحمد، لكن حسّ البكر لا يمكن أن يعوّض أبدا...

نعم آمولاي، رأيته البارحة. تصوّر أنّه لم يعرفني! ضاع ولدي ضاع؛ لم يعرف أباه! نظر في وجهي طويلا من دون أن يعكس محيّاه الخشبيّ أيّ تعبير، لا فرحة، لا حزن، ولا حتى غضب. اقتربت منه، وحاولت أن أعانقه فإذا هو بارد مثل حديد المنشار، أو كأنه قطعة خشب غمّلت من البلل لا أمل في بعث الحياة فيها. حاولت أن أذكّره بجدّته، بعمّته، بذكرى جارتنا الصغيرة الرّاحلة التي كان مفتونا بها قبل أن يهرب من الدّار، ذكّرته «بمقهى الرياض» حيث كان يصطحبني لمشاهدة مباريات الرّيال مدريد، ويستمتع بشرب الحليب السّاخن و عجائن التشّوروس*. جلست على حاشية سريره أتخيّل كيف كنت أقتاده زمن القيظ ليلاعب أمواج بحر «مَرتِينْ»* الماكرة، ندحرج الكرة على شطّه الممتد المنبسط، ثمّ نتنافس في جمع الأصداف البحرية الملونة والمحار. وفي منتصف النّهار؛ عندما تحمى الشمس وتلتهب، نجتهد لندفن جدّته تحت الرمال

---

*churros صنفان من العجائن المقلية في الزّيت اشتهر بصنعها الإسبان.

* بلدة شاطئية متوسّطيّة تقع على بعد عشرة كيلومترات من مدينة تطوان شمال المغرب.

السّاخنة إلى ما تحت جيدها بقليل، فتبقى على ذلك الحال ساعة من الزّمن، وكان هذا علاجا حاسما لآلام الرّوماتيزم التي أقعدتها عن الحركة، وكانت تكتسح عظامها كلّما توغّل فصل الشتاء. إيه؛ أين هي أمّي الآن، رحمة الله عليها، وأين تلك الرّمال الذهبيّة الصّافية اليوم؟! نهبتها شاحنات سماسرة الرّمال نهبا!...

معذرة مولاي، إذا كان لا بدّ من معاقبة أحد على ما اقترفه ولدي جعفر، فأمّه التي مرغت وجهنا في الوحل وأخوها الخنثى، أحقّ بالعقاب...

كاذبة، أنى لها أن تدّعي بأنني كنت أقسو عليه؟ صحيح أنه بعدما بلغ العاشرة من عمره، صار يعامل رحمة، زوجتي الثانية، بشكل منفّر موسوم بالكراهية والعناد، وهو ما حتّم عليّ معاملته بحزم و صرامة تشذيبا لأخلاقه وصيانة لحياتنا المشتركة، لكنني لم أكُ قاسيا عليه، كما لم أحرمه من شيء يحبّه أبدا...

معذرة مولاي، هذه آفة آل السّويهلي بوشيبة؛ ارتفاع صوتهم أثناء الكلام حتى لو تعلّق الموضوع بأمر هيّن...

صدقت مولاي، نحن في دار المخزن؛ دار الوقار...

طيبّ مولاي...

حاضر، سوف أجيب بحسب السّؤال...

والله لم أر سحنته مذ بلغ الثالثة عشرة من عمره. صحيح أنه كان فوضويّا وعنيدا، لكنك تعلم، طبعا، شقاوة أطفال...

أوه، أنفقت في مرضه ذاك مدّخرات سنتين من العمل المتواصل في ورشتي «بحيّ النجّارين». ضربة الرّيح التي اخترقت صدره المحموم، ليلة انفصالي عن أمّه، رفعت درجة حرارة جسده إلى الأربعين.

نعم مولاي، ها هي الفحوص الطبية المتعلقة به منذ ولادته، وهذه نسخة من شهادة ميلاده موقّعة من مدير«مستشفى سانية الرّمل»، وها نسخة من «شهادة البروفي» التي حصل عليها...

ماذا؟ طبعا آمولاي طبعا؛ لستم وكالة تشغيل! حسبتكم تحتاجونها...

من؟...مفضّل؟...مفضّل البوقاديري؟ البوقاديري؟ أوه..بالضّبط؛ البوقاديدي؛ هذا الولد مصيبة ابتلانا الله بها! كاد يقضي على مستقبل ولدي. إن لم يكن قضى عليه، فعلا. يا لطيف، كيف لم أفكّر في هذا؟ من أين أوتي ابني الشّجاعة الكافية للهروب، وهو لم يبت ليلة واحدة منذ ولادته خارج الدار، لو لم يكن هذا المفضّل هو الذي شجّعه وزيّن الفرار في نفسه...

أعرفه آمولاي حقّ المعرفة. ذات يوم أرسل في طلبي مدير« مدرسة الفضائل»، حيث كان يدرس جعفر. لا زلت أذكر؛ صبيحة العاشر من شوال بالضّبط. تركت الورشة في عهدة عليّ بن أخي التّهامي وأسرعت الخطو في اتجاه المدرسة. عندما وصلت، وجدتني أمام جوقة عظيمة من الأطفال والمدرّسين وبعض الأمهات تسد الطريق إلى بوابة الإدارة. لكن الأستاذ عبد الله، مدرس اللغة العربية، أقبل نحوي، وشرع في عناقي بمودّة كعادته، ثمّ اخترق بي الجوقة نحو مكتب المدير وهو يهمس في أذني:«كن حازما مع زنيفح، ولدك ضحيّة ». ولم يمهلني لأستفسر عن الأمر، فتح باب الإدارة فوجدت نفسي وجها لوجه أمام المدير الذي هبّ إلى معانقتي على غير عادته...

ماذا ؟...حاضر مولاي سوف أختصر.. المفيد: كان محيّا هذا المفضّل يكاد لا يرى بفعل بقع الدّم اليابس على وجهه، إلى جانبه وقف ولدي جعفر؛ آثار خدوش خفيفة على وجنتيه وشفته السفلى منتفخة متغضنة، وطوق وزرته المدرسية ممزّق. على مقربة من نافذة المكتب الموصدة انتصب كلّ من تلميذ آخر لا أذكر اسمه، كان مات بسبب شقاوته بعد ذلك بشهور، وزنيفح، حارس المدرسة، المطرق الذي لم يفكّر حتّى في رفع رأسه وتحيّتي. خمنت في ثانية أن المسألة تتعلّق بشجار دامٍ دار بين الأطفال، وكتمت بعض زهوي مستغربا من نجاح ولدي الهزيل العليل في إلحاق الهزيمة بهذا المفضّل القرويّ

السّمين. لكن كلام المدير بدّد سحر النخوة وزرع عوضا عنه حيرة لا أزال أحاول فكّ طلاسمها إلى الآن؛ أعلن المدير بكلّ ثقة وحزم أن زنيفح الحارس ضبط كلّ من ولدي جعفر ومفضّل وصديقهما محسن متلبّسين بسرقة مستودع المدرسة، وأنه لمّا حاول منعهم من ذلك انهالوا عليه ضربا فما كان منه إلاّ أن دافع عن نفسه ضدّهم، وأنه ينبغي عليّ أن أوقّع التزاما بعدم عودة ابني إلى ممارسة مثل هذا الشّغب، وإلاّ سوف يتمّ فصله نهائيا عن الدراسة، وشطب اسمه من لائحة التلاميذ المسجّلين بالمدرسة. وما أن أكمل كلامه حتى نطق صديقهم الشّقي المرحوم، وهو يوجّه الخطاب إليّ: «عمٌّ، عمٌّ إنّه يكذب! صحيح أننّا كنا ننوي أخذ الكراسي المكسورة لبيعها في سوق«الغرسة الكبيرة» ولكن زنيفح...» واندفع المدير نحوه كالبرق؛ صفعه صفعة قويّة على خدّه كادت تقلع رأسه، ثمّ أمر زنيفح بإخراج الأطفال، وهو يردّد « ها هو يعترف بلسانه أنهم لصوص، ها هو يعترف..» هزّني الموقف كثيرا. اعتذرت للمدير الذي قبِل اعتذاري، على الفور، وحرّر الالتزام الذي وقّعتُ عليه وأنا أقسم في سريرتي أن أسلخ جلد ابن الكلبة عندما نعود إل البيت. عندما غادرت بوّابة المدرسة التحق بي الأستاذ عبد الله؛ كان يتحدّث عن تشرّح زنيفح بولدي أو تحرّشه، لست أدري! لم أك في وضع يسمح لي بالإصغاء إلى ثرثرته؛ ما وقع في مكتب المدير هزّني كثيرا، وكان بالي مشغول بمصير الورشة التي تركتها في يد غلام لا يتجاوز الرابعة عشر من عمره. لذلك لم أك أصغي إلى ما يقول، وانفلتّ منه نحو الورشة لا ألوي على شيء. هذه هي الحادثة التي تعرّفت فيها على هذا المفضّل. وها بعد مصيبة الكراسي، يعود ليزجّ بابني في مصيبة أكبر منها وأعظم...

لا آمولاي، أنا رجل بعيد عن السّياسة وتحزّبات، حتّى النَّقَّابَة التي التحقَ بها معظم زملائي نجّاري الأرابيسك لم أطأ عتبتها في حياتي أبدا«ما نضرب، ما نهرب، ما نقدّ على فتنة»*

أوقّع آمولاي...

وولدي ؟...

لا إله إلاّ الله، عليه توكّلت وإليه أنيب...

ها أنا آمولاي ، ها توقيعي.

مراد الدويّب

مراد بن فويتح الذويّب. 42سنة...
متزوّج ولي ولد وحيد...
الثّانية حقوق...
عامل «بمعرض الأمان» للفاضل الحاج مراد عشيبَة منذ حوالي خمس عشرة سنة...
تمّت ترقيتي من رئيس مصلحة مراقبة الإنتاج، إلى نائب مدير المعرض منذ ستة أشهر...
أعرفه بطبيعة الحال؛ اشتغل معنا بالمعرض حوالي سنتين أو سنة ونصف، لا أذكر بالضبط...
ماذا أقول، الكلّ يعرف أنّه شخص حقود، عدوانيّ، لا يحبّ الخير للنّاس...
لأنّه كان يغار من زعامتي للنّقابة، وحاول أكثر من مرّة أن يكيد لي بين العمال، ولو أنّني لم أخبر حنكة صنع التّكتلات لنجح في إقصائي من الزّعامة بعد هذه المسيرة الطويلة في درب النضال!...
الحقّ أنه كان يكرهنا جميعا: أنا، بالدرجة الأولى، والحاج عشيبة صاحب الفضل عليه، وكذلك مدير المعرض سي عبد النعيم، بل حتّى المنظّفات لم يسلمن من لسانه القذر؛ اسمع ما تحكيه بديعة شنبولا من أنه كان سببا في خراب بيتها. ولماذا نذهب بعيدا؟ لقد تعرّضت شخصيا لعدوانيته في بهو النّقابة عندما لكمني في وجهي لكمة أطاحت بكلّ أسناني. انظر سيادتكم إلى آثار اللّكمة لا تزال عالقة بشفّتي السّفلى...
لا لم أبلّغ عن الواقعة حرصا على مستقبله؛ شاب معقّد طائش لا يدرك عواقب ما يفعل، تعرفون بدون شكّ ماضي أمّه! اللهمّ لا شماتة. ثمّ إنّ الحاج التمس منّي أن أعفو عنه حرصا على سمعة المعرض الطيّبة و هدوء الوضع به، ووعدني بأنه سوف تتمّ ترضيتي، وسوف يجزل لي العطاء ...
ذلك ما حصل فعلا؛ تمّت ترقيتي، وكُشف اللصّ...
نعم، سيّدي، كان جعفر هو المسؤول عن المخازن...
كلّ الأدلة أثبتت مسؤوليته عن سرقة السّلع، وإتلاف الملفات المتعلّقة بها...
ليس هناك عامل لم يحرّضه علينا؛ كان يستغلّ فرصة غيابي ليسفّه أسلوب عملي النقابيّ المتحضّر، ويدعو إلى ما يسمّيه «أشكالا نضالية أكثر فعالية»! ولم نك ندري أية فعالية يقصد؟ لعلّه كان يروم تقويض العمل بالمعرض لحساب منافسين اقتصاديين مجهولين؟ أو لعلّه كان ينفّذ خطّة إرهابية تقضي بإشعال فتنة تنطلق من المعامل لتشمل باقي المرافق الحيويّة في البلاد؟ ألم تعتقلوه وهو يرتدي حزاما ناسفا، ويستعدّ لتفجير نفسه في قلب «فندق السَّعْفِيِينَ»؟...
العلاقة هي أنّه كان ينتمي إلى منظمة إرهابية...
لا حديث للصّحف الوطنية والنّاس إلاّ عن هذا...
أحيانا، كان بعض الأشخاص الملتحين يزورونه في المعرض...
إذا كان الآخرون لم يروهم فأنا رأيته منزو بهم في الجهة الخلفية للمصنع...
أنتم أعلم، سيّدي، إن كانوا أقرباء له أو أفرادا من منظمته الإرهابية...
والله إنّي أحمد الله على أنكم قبضتم عليه قبل أن يفكّر في الانتقام منّا؛ أقصد: التعدّي علينا...
لا، سيّدي، ليس لي إضافات أخرى...
المعذرة، أرجو ألاّ يتساهل المخزن مع مثل هذه العناصر الإرهابية المخرّبة؛ إنّ إعدامهم أضمن وسيلة لاتقاء شرّهم...
صحيح سيّدي، هذا ليس من شأني.
أوقّع، أوقّع بكلّ سرور.

الحاج عشيبة

العفو عزيزي، هذا واجب...
لا تهتمّ، لا تضايقني الأسئلة أبدا! اسأل ما تريد...
الحاج مراد بن عبد القادر عشيبة...
66سنة وستّة أشهر...
رجل أعمال...
متزوّج ولا أولاد لي عزيزي...
نحمد الله على مشيئته. اصغ إليّ: لم نترك طبيبا على الكرة الأرضية إلاّ وطرقنا بابه؛ من إسبانيا إلى فرنسا وألمانيا وإنجلترا، حتّى كندا! أنفقنا مزبلة نقود بدون أدنى فائدة «ويجعل من يشاء عقيرا»...
نعم، صحيح «عقيمًا»...
من يأذن لك بواحدة، فما بالك بأربعة ؟!هيه..هيه..هيه..لو تجرّأت، عزيزي، وتزوّجت على ربيعة لما ضمنتُ بقائي على قيد الحياة يوما آخر...
أوه أكثر من غيورة! قل من ظلّها تغار!...
ها نحن نصبر إلى أن يفرّج الله...
لست متوتّرا، تركت سيارتي الروفير كلاس بباب المحكمة وأخشى أن يُقدم مغفّل على...
شكرا جزيلا، الآن نكمل الحوار بارتياح؛ أحسنت صنعا بتنبيه حارس البوّابة...
تفضّل...
اسمح لي عزيزي، هل من الضروريّ أن نجيب على هذا السّؤال ؟...
لا يهمّ، لنقل خرّيج إعدادي...
أعرف زوج أمّه سّي علاّل الصّافي؛ صديق قديم ورجل ناضج...
زارني وربيبه، في المعرض ذات صباح، طلبا للعمل؛ وافقت على تشغيل الفتى إرضاءً لسّي علاّل...
في السّنة الأولى كان سلوكه طبيعيّا جدّا، لكن بعد مرور الوقت أخذ الولد يثير القلاقل في المعمل، ويحرّض العمال على الإضراب، وعلى رفع دعاوي قضائية ضدّي للمطالبة بما كان يسميه «الحقوق المنهوبة». ولست أدري أية حقوق نهبت من أمّه، وهو لم يقض في العمل معي غير سنة واحدة ؟! كان يلسّن عليّ كثيرا، ويسفّه مسيرتي العمليّة بحكايات وترّهات لا أدري من أين يستحلبها! ثمّ إنّه يمارس عدوانه على كلّ من يخالفه في الرأي، وقد خرّب ذات مساء أسنان العامل مراد الذويب عندما التمس منه عدم تأخير طلبيّة أحد زبائننا الكبار...
أنا من تدخّل، يومها، للحيلولة دون لجوء عطيطر إلى العدالة أملا في أن ينصلح حاله، لكن ذنب الكلب لا يستقيم أبدا!...

آخر مصائبه اختلاسات المخازن الذي كان يشرف عليها شخصيّا! صحيح أنه تقدّم بادعاءات خطيرة ضدّي أثناء محاكمته، مؤازرا من محامين وصحفيين أوغاد مثله، لكن القضاء أيضا قال كلمته الفصل، وها حكم قضائيّ من محكمة الاستئناف يدينه بالسّرقة الموصوفة وخيانة الأمانة...

لم نلتق، بعد الحكم، وجها لوجه أبدا. أمّا علاّل فصادفته مرّة بمديرية الأمن، وكنت في زيارة صديقي العقيد احمد سمعان ولكنني لم أعبأ به. وعندما سألت أحد مفتّشي الشرطة عن سبب زيارته أخبرني بأنه قدّم بلاغا حول اختفاء ربيب له اسمه جعفر بوشيبة منذ شهر تقريبا. فخمّنت أن اللصّ يحوم حول مصيبة أخرى، وها تخميني كان في محلّه...

لا يمكن أن أجزم بأنه تلقّى زيارات مشبوهة في المعرض أو في المعمل؛ أنت تعلم أنّني أتنقل كثيرا بين مشاريعي، ولا أولي بالا لمثل هذه الأمور، يمكنكم استفسار صهري، ومدير أعمالي عبد النعيم بوقدّيدة حول هذا الأمر...

ماذا أقول: والله عزيزي، أصبح الحال في المعرض والمصنع اليوم أفضل بكثير مما كان عليه أيّامه، كان هاجس الفتنة يؤرّقنا دائما بحضوره وبعض أنصاره من الأوباش...

الآن، اللهمّ لك الحمد؛ كلّ شيء يسير على ما يرام...

أنت تعلم، عزيزي، الأعمال الاقتصادية تحتاج إلى كثير من الأمن والاستقرار...

أوقّع بكلّ سرور...

لا،لا،لا داعي لترافقني إلى الباب...

مرحبًا بك ضيفا عزيزا في المعرض في أيّ وقت...

بارك الله فيك ...مع السلامة .

عبد النعيم

عبد النّعيم بوقدّيدة..59 سنة...

دبلوم محاسبة من «معهد كاطالونيا التّقني» فوج 1958...

متزوج...

فرقة كرة القدم بدون احتياطي؛ أحد عشر ولدا وبنتا...

لا، من امرأتين: فتحيّة بنت اسماعيل الهيشو، والغالية بنت ماء العينين بنت بّاها...

أينما رمتني الأقدار أبيت في بيت أصهاري! ....

بيني وبينك: النّسوة مثل الأطعمة؛ بالله عليك، هل تستطيع أن تلتهم طعاما واحدا طوال عمرك من دون أن تكرهه وتملّه ويصيبك شمّ رائحته بالغثيان؟!...

لم أكمل خمس سنوات من زواجي الأول، حتى بلغت درجة من النّفور الجنسيّ جعلت رأسي يسقط على لحم فتحيّة من دون أن أستطيع مطّ شفتيّ لأقبلها؛ كما لو أنّني سوف أتقيّأ إن فعلت! كنت أهرب من الفراش هروب الخفّاش من ضوء القمر. بالله، نظرة واحدة إلى فتيات الجيران اليافعات وهنّ ينشرن الغسيل على شرفات منازلهن بألبسة نوم قصيرة تكشف عن بياض جلود منسابة بدون خدوش، ونفور نهود ناطقة بحرارة الصّبا ونضارة الحياة وعذوبة الخفّة والعافية والدّلال؛ بالله، نظرة واحدة إليهن كانت كافية لتسقطني طريح اليأس أياما وليالي بلحية كثّة، ومزاج معكّر وشهيّة مفقودة! ..آحّاي...وتلك الأقدام الرقيقة الرشيقة، التي تنتصب على بنان منقوشة مثل حبات موز طريّة، تسرع في مشيتها كما لو أنّها أقدام غجريات مليحات ترقصن حكاية حبّ على أنغام الفلامينكو: هولي. هولي. ثمّ...

المعذرة سيدي...بالله،كلّما فُتحت هذه السّيرة إلاّ طارت بي الأماني والأحلام إلى دنيا الفتوّة التي أخذت تنأى عنّي كثيرا هذه السنوات الأخيرة؛ فحياتي مع الغالية، بعد ازدياد الوغد الرابع، أضحت تثير القرف! بكل تأكيد، صحّتها وحيويّتها يوم تزوّجنا لم تعودا كما هما اليوم؛ الآن ليس ثمّة غير عناد وزفير وشكوى من الأطفال ومطالبهم، وخلود إلى النّوم بعد صلاة العشاء مباشرة! وكذلك الحال معي أنا أيضا...

ولم لا؟! بالله، أفعلها وأتزوّج، بشرط ألاّ يقلّ عمر الصّبية هذه المرّة عن ثلاثين سنة؛ لم تعد صحّتي تحتمل تحليق الفراشات العابثات! ...

أنا أقدم واحد في معمل الحاج...

نعم، صهري...

متزوّج من أختي ربيعة منذ حوالي ثلاثين سنة...

سبحان الله! أمر غريب فعلا؛ الذّكور؛ أنا و أخي أحمد معافان، أمّا الإناث فلا ندري أيّة جائحة ضربتهنّ؛ كلهنّ عوانس...

نعم لي أختان متزوّجتين، أكبر من ربيعة زوجة الحاج، ولا واحدة منهما أنجبت!...

التحقتُ محاسبا بالمعمل، مباشرة بعد عودتي من إسبانيا...

أبليت البلاء الحسن في عملي رُقّيت إلى منصب مدير المعمل والمعرض معا، ليس بسبب قرابتي للحاج، كما يدّعي البعض، فالحاج لا يرحم في شؤون العمل حتّى أباه!. عجبا، كيف يتجاهلون خبرتي التي تجاوزت الآن ثلاثين سنة...

بالله، لم أكن أستغلّ موقعي لابتزاز نساء المعمل أو التحرّش بهنّ. لا أنكر أنّني أحبّ النّساء، وما العيب في ذلك ؟ ألم يعلن سيّدي النبيّ أنّ قرّة عينه النّساء والصّلاة...

وأنا أيضا أقصد نسائي، ولكن القاضي لا يحكم على النّظرات! ومن لا يشتري، على الأقل، يتفرّج! كما يقولون: العمَش ولا العمى!...

يعلم سيّدي، طبعا، أنّ منصبي كمدير للمعرض يفرض عليّ أن أستقبل بمكتبي كلّ العمال، الرجال منهم والنّساء. و إذا ما تمتّعت إحداهن بخفّة دم أو نعومة زائدة أو جمال يحمّي العروق لم تسلم من النّعوت والإشاعات، خاصة وأنّ الرجال من العمّال يعرفون طبيعة مزاحي معهم!...

وهل ثمّة وجود لنكتة تحكيها لأصدقائك، سيّدي، غير ما تعلم...

هل تعرف آخر نكتة في هذا الموضوع؟...

عفوا سيّدي، لا تؤاخذني؛ هكذا أنا :صموت مع الأرقام ثرثار مع البشر!...

كيف لا أعرفه وقد قضى معنا سنتين كاملتين ؟!...

بالله،كان في أوّل عهده فتى خدوما، مخلصا، يسمع الكلام ويتعلّم بكفاءة وسرعة مشهودتين، لكنّه لم يفتأ أن تحوّل إلى شخص شرس، لا يطاق، ولا سبيل إلى التفاهم معه...

لا أظنّ أنه كان متديّنا إلى الحدّ الذي يظهر عليه. صحيح أنّني وجدته ذات عصر، من آخر أيّامه معنا، يصلّي في جوف المخزن، وبعد أن انتهى نبّهته من مغبّة أداء الصلاة من دون إغلاق مخزن المعرض. وأظنّه استمع لنصيحتي ولم يكرّر سهوه إلى أن فاجأنا بسلوكه المهين...

أقصد عندما اختلس من المخزن ما اختلس...

شخصيّا لم أر ملتحيا يزوره في المعرض غير زوج أمّه سي علاّل الصّافي، يعرفه الحاج وكثير من العمّال القاطنين بدوار العسكر...

نعم كان جعفر يحرّض العمّال، كان يحرّض العمّال ويثير المشاكل، خاصّة في عامه الثّاني معنا...

بالله علاقتي ببديعة لا تتجاوز علاقة رئيس بمرؤوس. لعلّ جعفر كان سببا في طلاقها من زوجها؛ كثيرا ما كان ينفرد بزوجها المهيدي في ساحة المعمل، ويظلاّن يوشوشان بدون انقطاع...

لا أحسبه وزّع منشورات بالمعمل أو شيئا من هذا القبيل، وإلاّ لكنّا علمنا بذلك، وبادرنا إلى إخطاركم بالأمر؛ أمن الوطن من أمننا، أليس كذلك ؟...

أوقّع بكلّ سرور...

آي.آي.آي.شكرا على مساعدتك؛ أصبح الجسد يخونني ويفضحني حينا بعد حين...

نحن تحت تصرّفكم... .

المريضي

محمد بن المختار المريضي.47 سنة.
مطلّق...
ثلاث بنات.
شهادة الدّروس الإبتدائية.
سائق شاحنة«بمعرض الأمان»منذ عشر سنوات.
أعرفه طبعا....
ابن ناس أصيل...
ولد طيّب، يحبّ الخير للجميع ولا يسكت عن ظلم أبدا...

علاقتي به جيدة مذ التحق بالمعرض، وازدادت محبّتي له بسبب تفانيه في التّعاون معنا لحظة شحن السّلع بالمخزن، تبارك الله عليه؛ ينجز نصف العمل بمفرده! على الرغم من أنّه ليس ملزما بذلك؛ نحن والحمّالون من ينبغي أن يشحن السّلع وليس هو؛ ومع ذلك دائما ما كان يتطوّع بدون تبرّم أو منٍّ. تعرّفت كذلك على أبيه؛ أقصد زوج أمّه سي علاّل البقّال؛ رجل مثقّف تبارك الله عليه!.. جمعتنا أمسية «بمقهى الزيتونة»؛ ما أن تفتح في حضرته موضوعا حتّى يبادر إلى تشنيف مسامعك بمعلومات لم تك لتخطر لك على بال! حنفيةّ معرفة! رأيت مكتبته بأمّ عيني؛ تحتلّ صالة البيت بأكملها، وتتكوّم باقي الكتب في رفوف وعلى صناديق بغرفة السطح...

سقط جعفر بالحمّى ذات خريف، فزرته في بيته بدوّار العسكر رفقة بعض الأخوة العمّال...

لو كان الحلّ والعقد بيدي لفضّلته زعيما لنقابة العمّال عن غيره...

جعفر يختلف عنهم؛ أغلبهم سماسرة يبيعون ويأخذون عمولتهم !...

هذا المخلوق بالذّات لا وجه للمقارنة بينه وبين جعفر. جعفر صريح وواضح ولا يتلوّن أبدا، أمّا الدويّب؛ الكلّ يعرف أنّه مثل حرباء بألف لون ولون !...

أوه، عبد النعيم شيء آخر؛ مثل الأفعى، لا تعرف متى تلدغك!...

سبق أن توسّلنا إلى جعفر أن يرشّح نفسه لزعامة النقابة لكنّه رفض؛ قال إنّه حريص على أن تظلّ علاقته بزملائه في العمل علاقة محبّة وثقة متبادلة، وليس علاقة ريبة وتوجّس...

بديعة بنت لزرق شنبولا...

أسباب شخصية. حسنا، حَرُمَ بيننا الماء والطّعام ؛ الله يسامحها...

بل جعفر هو الوحيد الذي لم يواجهني بحقيقة بديعة؛ ينأى بنفسه عن الوشاية دائما ...

معظمهم أبلغني بسوء سمعتها، وأوّلهم الحرباء الدويّب؛ حتّى أنّه التقط صورة فوتوغرافية للخائنين في وضع مخزي من دون أن يشعرا به، وسلّمها لي يبتغي الفتنة، لكنّني خيّبت أمله!...

نصحني جعفر بألاّ أوسّع دائرة الخبر...

أذكر أنّه زارني ببيتي في ليلة كئيبة ودعاني للقيام بجولة على «كورنيش شاطئ تمودة». كان الفضاء خاليا إلاّ منّا وبعض المتشرّدين الذين لفظتهم المدينة في تلك الليلة الباردة من ليالي أكتوبر. وعلى عكس الجميع كنت أنا الملتهب الوحيد بفعل ارتفاع ضغط دمي، وثقل الهواجس التي أثخنتني جراحا منذ الساعات الأولى من الصباح، حتّى أنني لم أضع في جوفي لقمة خبز طوال النّهار، بل حتّى الماء لا أذكر أنّني شربته. كنت مذهولا عن الدّنيا حائرا، متذمّرا ويائسا. كان محور تفكيري ليلتها هو تدبير الموارد المالية لرفع دعوى زنا ضدّ الفاسدة والمجرم. وكنت في أثناء ذلك أفكّر في مصير بناتي، وكيف سأتدبّر إمكانية عيشهم مع أمّي. لا يمكن أن أنسى وقوف جعفر إلى جواري يومها، وكيف أنّه وضّح لي سلبيات اللّجوء إلى القضاء وتأثير ذلك على سمعتي ونفسية بناتي وسمعتهن. ونصحني أن أدفن الفضيحة في مهدها، وأسدّ الباب في وجه الصحفيين وأهل الغيبة والعابثين بأعراض الناس. قال «إنّ الأيام كفيلة بمحو آثار هذه الفضيحة مادامت لم تتجاوز أسوار المعمل، أمّا إذا وسّعتَ الدائرة وشاع خبرها بين الناس، أصبحت قضيّة عمومية، واشتغلت بك الألسن وببناتك في كلّ مكان». أذكر أنّ صوته كان هادئا صادقا خفّف عنّي كثيرا ممّا كنت أحسّ به من ضيق ليلتها. وكان على حقّ، حفظه الله، تكفّلت الأيّام، فعلا، بدفن هذا العار.

يفتري من يقول أنّه كان عنيفا. ليس هناك أرقّ منه وألطف...كَانْ تشَاتِي بْزَّافْ*. من النّادر، فعلا، أن تجد شابّا في سنّه بتلك الطيبة والأخلاق!...

بكلّ تأكيد، أوقّع، فأنا لم أقل غير الحقيقة.

- ملفوظ شعبي بمعنى:طيّب جدّا.

عشّ عصفور جريح

«لن يتحمل جهازه العصبيّ أجواء التّحقيق. لقد نتج عن إصابته في الرّأس فقد للذّاكرة من الدرجة الثانية، ومن المحتمل جدّا ألاّ يتذكّر، في غضون السنوات الثلاث المقبلة، أيّ شيء له علاقة بالحادث ».

هذا بعض ما تضمّنه تقرير الطبيب المعالج، وعندما شكّك العقيد الأشقر في هذا الاستنتاج، أردف الطبيب بحزم «لا تنسى أنني تحت عهد القسم، ولا يمكن أن أقرّر إلاّ ما أراه حقيقة، وأنتم أحرارا، بعد ذلك، خذوه أو اتركوه».

وإلى حيثيات التّقرير الطبي استند وكيل النيابة العامة لإخلاء سبيله بضمان إقامته، وأداء غرامة مالية قدّرت ب20.000 درهم جمعها سكان حارة أولاد الهاشمي وبيوت دوّار العسكر. وتمّ إرسال ملفّ القضيّة الأصلي كاملا إلى محكمة أمن الدّولة العليا.

غاصت الغرفة، قبيل مغادرة جعفر، بأشخاص وضجيج : العقيد الأشقر يتحدّث في هاتفه المحمول، وتصدر عنه، من حين لحين، ضحكات خافتة متقطّعة وتنهيدات قصيرة متوتّرة. جمهرة من رجال السّلطة وبعض أعوانها حضروا لوداعه، أو ربّما من باب الفضول؛ رغبة في التفرّج على أحوال شخص فاقد للذّاكرة! عسكر وشرطة جنائية وشرطة مكافحة الإرهاب والشّغب، وأطر من الاستخبارات الوطنية والدولية، ومصوّر ملحق بمديرية الأمن، وبعض مقدّمي الحارات، من بينهم وشّاي الفضيل مقدّم«حارة أولاد التهامي»، الذي لا أحد يدري إن كانت نظراته الباهتة المثبتة على جعفر توحي بحزنه عليه وتعزيته في مصابه، أم بحنق عليه مكتوم لأنه ورّطه في ملفّ أمني جلل من حيث لم يكن يتوقّع: « أين كانت أذناك الضّخمتين، يا حمار، وعيناك الجاحظتين، وأنفك الشمّام ؟» قد يكون سمع أكثر من هذا بعد الواقعة؛ لعلّهم حقّقوا معه هو أيضا، واستنكروا تهاونه في التّبليغ عن أي سلوك غريب من المفترض أن يكون صدر عن الشّاب خلال المدّة التي قضاها مع زوج أمّه. وقد تكون هذه الأيام آخر عهده بالخدمة كعون للسّلطة، بعدما ثبت فشله في رصد سلوك سكّان الحارة وزوّارهم، و تتبّع خطواتهم وعدّ أنفاسهم.

وانكبّ الطبيب الوسيم على جعفر يفحص بياض عينيه، ثم خرج إلى الممرّ واستدعى الجميع إلى مكتبه..

- أرجو ألاّ تعطوا كلامي أكثر من حجمه؛ كلّ شيء، الآن، رهن مشيئة الله، وشطارتكم طبعا!

- هل ثمّة بأس، دكتور، قل لي: ما به أعزّ أحبابي؟ نطقت مليكة بصوت متهدّج حطّمه الأرق.

- نحمد الله أنّ فقد الذاكرة لم يأخذ أبعادا أخطر، وإلاّ لكان أمل علاجه ضئيلا جدّا.

- فقد الذّاكرة، هل تعني أنّه لن يعرفنا؟!. علّقت فنة مذعورة.

- ربّما كان يصغي إليكم الآن بصوته الباطن، أما استفاقته فسوف تكون طبيعية جدّا بعد سيران مفعول حقنة الإنعاش الدّماغي التي حقنّاه بها.

-ولكن، كيف لمن مثله أن يتدبّر أمره في السّجن؟. احتجّ سي علاّل بصوته الهادئ الذي يكاد لا يسمع.

- لا تقلقوا، ربّ ضارة نافعة. لا أحسبكم أتيتم في زيارة عادية، لأن العقيد حسنون كان منع الزّيارات إلى حين صدور الحكم.

- صحيح ؛ تمّ استدعاؤنا من قِبل هذا العقيد في مكتبه حيث ألقى علينا بعض الأسئلة، ثم اقتادتنا فرقة من رجاله إلى المستشفى، وطُلب منّا الانتظار. وضّح سي علاّل.

-ولكن دكتور، ابني أعزّ أحبابي، لن أقبل بأن يضيع منّي مرّة أخرى، لو تعلم ما قاسينا قبل أن يجمعنا سقف واحد... وانخرطت مليكة في نحيب مسموع.

-لا تقلقي سيّدة مليكة، ولدك سوف يبيت في حضنك اليوم، ألم أقل منذ قليل: ربّ ضارة نافعة؟!

- ماذا؟!.صاحت فنّة، وخارت قوى مليكة فتمسّكت بذراع سي علاّل قبل أن يردف الطبيب:

- الحق أن مسؤوليتكم ضخمة؛ أيّ تفريط في الاضطلاع بجزء صغير منها كفيل بأن يؤخّر توقيت العلاج، وقد يقلّل من فرص نجاحه.
- نخدمه برموش أعيننا !. نطقت فتّة على غير إرادة منها ثمّ أطرقت بخجل.
-حكايات الماضي بلسم حاسم في حالته، كلّ الحكايات التي عاشها أو سمع عنها،كل الأشخاص الذين أحبهم أو أثّروا فيه. لا تملّوا الحكي، ولكن لا تهملوا برنامج العلاج أو تسهوا عنه، وإيّاكم، أن تجعلوه يتوقّف عن تناول الدّواء، أو تتهاونوا في احترام أوقاته.
-اطمئن دكتور، لن ندّخر جهدا في السهر على علاجه، ولن نبخل بشيء في سبيل خروج ابننا من هذه المتاهة. أعلن سي علاّل بثقة، وهو يطوّق مليكة بذراعه.

ونُقل جعفر في سريّة تامّة إلى منزل سي علّال زوال يوم السّادس من شوال1425 هـ؛ تمّ ذلك عبر البوابة الخلفية للمستشفى على متن سيارة صغيرة لنقل البضائع؛ تلافيا لعيون الصحافة التي كانت تترصّد بوابة المستشفى من مواقع متعددة، متلهّفة إلى تحقيق السّبق في نشر صورة الإرهابيّ الذي تردّد في تفجير نفسه عشية العاشر من مارس الشّهيرة.

وكانت فتّة، التي لم تعد تقوى على فراق الأسرة مذ تمّ اعتقال جعفر، سبقت إلى البيت لتعدّ غرفة السّطح المنعزلة حيث سيقيم بعيدا عن أعين الجيران وضوضاء الشّارع وثرثرة الزّائرين من نسوة الحارة ورجالها، وتلصّص الوقحين من الصّحفيين وعبيد الأخبار.

وغاصت فتّة وهي ترتّب أثاث الحجرة إلى عمق سحيق من وجدانها المضطرب، وتخيّلت بهاء حياتها لو تلين مليكة بعد هذه الوقائع المفزعة وتقبل بها زوجا لجعفر. وانزاح عن صدرها كثير من التوجّس عندما استحضرت بعض مواقف مليكة تجاهها خلال الأيام العصيبة الأخيرة؛ تذكّرت كيف كانت تتشبّث بذراعها لحظات الذّعر والقلق، وتشركها في رسم مخطّط حياتهم بعد أن يمّن الله على ابنها بالفرج. أليست فتّة هي من اقترح تغيير موقع غرفة السّطح حتّى تصبح ملاذا آمنا مطمئنا لجعفر، بعد إطلاق سراحه، فاستحسنت مليكة الاقتراح وعانقتها باكية؟ ألم يك سي علال يستفسرها من حين لحين عن أسماء أنواع الأطعمة التي أوصى بها الطّبيب لجعفر، وأسماء الأدوية المدوّنة في الوصفة؟ بل إنّ مليكة، نفسها، رهنت عافية ابنها وعودته إلى الحياة بالجهد الذي سوف تبذله فنة، وهي لا تزال في مقتبل عمرها، سهرا على راحته ومعاينة لتطوّر حالته المرضية، وتدوينا يوميا لكلّ المستجدّات التي قد تطرأ على شخصيته بعد انتظام حلقات الحكي وتناول الأدوية، وفترات النّقاهة الرّوحية؟ أليست هي من سيرافق جعفر في رحلة البحث عن ذاته، من جديد، بين مسالك متاهات نفسية معقدّة، وفي جوف وجدان رحب فارغ معتّم؟

واستسلمت الفتاة النّاضجة لحلم بهيّ طالما طاردت طيفه أيام القهر والذلّ بجحيم«رموش العروس»، وليالي الصّخب والابتذال والقذارة؛ حلم ضجيج الأسرة وافرة الأطفال: أكلاتهم الخفيفة، منبهات حافلاتهم المدرسية، أصباح المطبخ الآمنة، أمسيات السّهر قبالة التّلفاز، حبّات زريعة الشّمس، وهذا الباب الموصد أمانا وطمأنينة. وارتجف فؤادها فجأة وهي تتذكّر ليلة اخترقت فرقة من الشّرطة العسكريّة مدجّجة بأسلحة نارية وهراوات طويلة غرفة الماخور إياه. كان جسدها النحيل محاصرا من قبل فحل أسمر مجزّز الشّعر، وما أن رآهم فوق رأسه حتى قفز بسرعة فهد يبغي التسلّل من نافذة الغرفة، لكن قائد الفرقة كان أسبق إلى التقاط قفاه بضربة قوية أسقطته مغشيّا عليه. صحيح أنهم لم يلتفتوا إليها، وخرجوا يجرّونه كما ثيران المذبح. لكن فزع لحظة الاختراق نقش في وجدانها نقشا لن يمّحي مهما فعلت، خصوصا بعدما علمت بأنّ المارد كان مجنّدا في الجيش وفرّ منه بعدما كسر أسنان قائده وسرق مسدّسه، إثر خلاف حاد حول تعويضات عائلية خاصة بالجنديّ لم يتسلّمها منذ سنوات.

وهل يمكن أن تمّحي صورة المخلوق المرعب الذي احتجزها ليلة صيف ملتهبة بنفس الغرفة بعد لحظات لطف ومداعبات وديعة؟! تتذكّر كيف كان إفتتانها بشخصيته المثقّفة قويّا، وانقادت باندهاش عظيم لحكاياته العجيبة وحديثه المشوّق وضحكاته المجلجلة، لكن ما أن انتصف اللّيل وبلغت به الثمّالة أوجّها حتى انقلب وحشا دمويّا كاسرا؛ انهال عليها بسطام حزامه الحديدي، هائجا غير عابئ بذعرها القاتل ودفق دمها الطريّ الذي يغسل جدران الغرفة ، ولولا مبادرة شابّين من رجال الدّرك إلى اقتحام البيت وتخليصها من يد المعتوه لقضي عليها، ليلتها، أو لأعطبت لبقية حياتها...

واستسلمت فتّة لسِنة هانئة على إحدى متارب غرفة السّطح بعد هذه الأيام الطويلة العصيبة المترعة بالقلق والإرهاق. وكان سي علال خفّ الخطى إلى عين المكان ليتأكّد من إتمام إعداده لاستقبال جعفر، فوجدها غارقة في سبات عميق وقد تعرّى نصفها السّفلي وانفرجت قدماها، وأسرع الرجل في تعديل وضعها على المترية وسترها ببطانية قبل أن يصل إلى الغرفة فتيان أشداء من الحارة تطوّعوا لحمل جعفر بعد أن انتابته حالات دوار وذهول مباغتة.

وهكذا ابتدأت الحياة الجديدة؛ عصيبة متوتّرة مضطربة. كان ثمّة وجود لأجواء نفسية خاصة تسود الوضع العام داخل بيت سيدي علال: مزيج من البهجة العارمة بحريّة جعفر وإفلاته من تبعات الفخّ الرّهيب التي ألفى نفسه أسير أحراشه المعتّمة، ثمّ قلق من مستقبل أصبحت تلفّه غمامات غموض داكنة، وأسئلة ملغزة لم يكن ثمّة بدّ من الإجابة عليها في أقرب الآجال، وأخيرا هذه الحقائق المرعبة التي أصبحت تتكشّف لهم يوما بعد يوم من خلال مظهر جعفر وسلوكه المرضيّ الجديد...

لم يكن أحد منهم يتصوّر أن «فقدان الذاكرة»، هذه العبارة التي تلفّظها الطبيب بصوت هادئ خافت، تختزن، في حقيقة الأمر، وضعا إنسانيّا في غاية الخطورة والتردّي؛ لم يدركوا أنهم سيغادرون المستشفى وفي يدهم طفل كبير يفتح عينيه على الدّنيا، لأوّل مرة، عاجزا عن معرفة مكوّناتها المتناسلة، البسيطة منها والمعقّدة... وربّ أوّل إنذار أفزعهم كان لحظة وقف جعفر بالباب الخلفي للمستشفى مشدوها إلى الأسفل، عاجزا عن نزول الأدراج المؤدّية إلى الطّريق، ممّا اضطرّ سي علاّل إلى الاستعانة ببعض شباب الحارة ليساعدوه في نقل جعفر إلى البيت.

وشهدت غرفة السّطح الصغيرة الواطئة ولادة جعفر الثّانية؛ ولادة ملفتة حقّا: ذاكرة بيضاء ووجدان فارغ وزغاريد! تأبّطت فتّة ذراع جعفر، المذهول عن كلّ ما حوله، وهي ترفل في فستان عرسها الأبيض الطويل المزركش وسطه بأصداف صغيرة برّاقة، بينما استقرّ على شعرها الملفوف بنعومة إلى أعلى تاج رمزيّ مصفّف بجواهر غير أصلية دقيقة لامعة، فبدت أشبه ما تكون بأميرة أندلسية متوّجة. كان إشراق وجهها الوضّاح يضيء فضاء الحفل ويجذب كلّ الأنظار؛ كأنّ الفرحة ستقفز من عينيها المتلألئتين بدموع البهجة العارمة وظلال القلق الخفيّ. وجعفر أيضا بدا رجلا وقورا ببدلة العرس الثّلاثيّة الثّمينة ونظارات طبيّة، يضعها لأوّل مرة، وحذاء جلديّ أفطس لامع، ونظرات تائهة، ولعاب يسيل بين الفينة والأخرى من جنبي شفتيه، فتبادر مليكة إلى تجفيفه بمنديلها؛ مليكة الضّاحكة الباكية المزغردة التي يضمّها سي علاّل إليه كلّما أحسّ أن غرابة الموقف توشك أن تهزم قدرتها على التحمّل والصّبر؛ كم التمست من الله أن يمتدّ بها العمر لتشهد هذا اليوم الذي تخيّلته في ألف صورة وصورة، إلاّ هذه الصورة التي هو عليها اليوم! ها أعزّ أحبابها، أو ما تبقّى منه، يولد في حضن عروسه ليبدأ عمرا جديدا بكلّ معانيه، ليتعلّم الكلام والضّحك والحبّ وأسماء الأشياء والأشخاص، ليرضع الذّكريات قطرة قطرة كما يسقى محلول الدّواء...ولكن، أنّى له أن يواجه رحابة الحياة بعقل كالصّفحة النّاصعة، و روح يعشّش فيها الجهل والفراغ والعدم، وجسد مفكّك مترهّل؟!

وتفوّض مليكة أمرها إلى الله وإلى فتّة؛ تعرف جيّدا كم تحبّ ابنها وتعطف عليه! لن تتخلّى فتة عنه مهما حصل. لن تتأفّف منه أو تضجر من صحبته. كانت، على مرّ حياتها «برموش العروس»، تحلم بزوج وأسرة؛ ها الله استجاب لها أخيرا، هل

تبطر نعمة الله وترتدّ عن حلم حياتها؟! لن تفعل. توقن مليكة جيّدا بأن فتّة لن تفارق جعفر أبدا«سي علاّل أيضا، وأنا، كلّنا مع أعزّ أحبابي،كلّنا معه».

ولكنّ جعفر لم يكن يقوى على التّركيز، ينتشله من حين لحين صداع مفاجئ، ويسهّده الأرق ليلة بعد ليلة. وفتّة تتحمّل بصبر وشجاعة لا مثيل لهما وقائع حياتها الجديدة مع جعفر؛ حياة أشبه ما تكون بالعيش على فوهة بركان هادر لا تدري متى يفرغ أحشاءه ويحرقها! لم تتهاون فتّة في استحلاب الذّكريات واحترام مواعيد الدّواء، ولا ضجرت من حصص النّظافة التي كانت تلزمها بتغيير حفاظاته، مثل رضيع، وتطهيره بعد أن لم يعد يتحكّم في حصر بوله وبرازه. لم تملّ فتّة من تذكيره بأسماء الأشياء كلّما كرّر على مسامعها سؤاله المعهود:«هذا؟»؛ سيل الأشياء والأسماء والصّور يخترق أذنيه ليسيل من مسام بدنه الرّخو قبل أن يسيل العرق!.

فكّرت، يوما، في أن تجرّب نصيحة الطّبيب بخصوص مدى استيعابه لكيفية تناول الطّعام. « قد يعلق بذهنه شيء من حركاتكِ يسعفه في تناول طعامه بنفسه، إذ ذاك يمكن التأكّد من درجة استجابة حالته للعلاج». تركَت الطّعام على المائدة أمامه وخرجت من الغرفة لتراقبه من دون أن يراها. انتظرت طويلا. لم يعد هناك مجال للانتظار أكثر بعدما برد الطّعام وتجمّد مرقه! ظلّ نصف ساعة كاملة يرنو إلى الصّينية واللّعاب يسيل من فمه من دون أن يعرف كيف يمدّ يده. ما كان على فتّة، التي أدمى الحزن قلبها واغرورقت عيناها بالدموع، إلاّ أن أسرعت لإطعامه؛ فما كانت تضع اللّقمة في فمه حتّى يلتهمها دون مضغ من شدّة تضوّره جوعا!

في أثناء شهور مرضه الأولى، اعتاد جعفر أن يقضي معظم أوقاته مضطجعا على كنبة منفردة بمحاذاة النّافذة المطلّة على السّطح مستسلما لوهنه الشّديد، وعدم قدرته على النّهوض والحركة، شاردا محدّقا في الفراغ، متتبعا بذهول ملفت تحليق الطّيور ونزولها على قراميد السّطح البنيّة. وذات غبش انتفضت فتّة من مكانها مذعورة لتلحق بجعفر الذي أمسك بيده إبريق الشّاي السّاخن من دون أن يصرخ أو يتألّم. وعندما بسطت راحته أفزعها ما تعرّضت له من حروق بالغة تطلّبت إسعافا طبيّا فوريّا، بينما كانت نظراته إلى كفّه تنطق بكلّ دلالات الحيرة والذّهول! ثمّ إنها أنقذت البيت من كارثة فظيعة كانت كفيلة بالقضاء عليهم جميعا؛ فتحت عينيها بعد منتصف ليلة عاشوراء الماضية على جعفر وهو يقرّب فتيل شمعة مشتعل إلى مفتاح الكهرباء، ارتمت عليه ونجحت في انتزاع الشّمعة من يده قبل أن يوصلها بالأسلاك، وعندما نهرته، على غير إرادة منها، ردّ عليها وهو يرتجف من الخوف«الضوء...أشعل»!

ومرّت أيام، وانتظم سّي علاّل في نقله صباح كلّ أحد، على كرسيّ متحرّك، إلى ملعب الحيّ القريب لمشاهد مباراة كرة القدم الخاصة بالهواة من صبيان الحارة، ثمّ الانطلاق به في دروب «تمودة» العتيقة، وبين أزقّتها، واصطحابه إلى مبنى «دوّار العسكر» حيث يستقبله الأهالي بكثير من الحفاوة والكرم من دون أن يتمكّنوا من تحريك رموش عينيه أو تنشيط ذاكرته. كان سّي علال فكّر في مبادرة طريفة، راهن عليها لتذويب هذه الصّور والذّكريات الجليدية في ذهن جعفر. واستشار الطبيب الذي بارك سعيه، وشرح له الكيفية التي ينبغي أن تتمّ بها العمليّة بتنسيق مع الآخرين.

كتم سي علاّل لجام غيظه وهو يُستقبل من قبل الحاج عشيبة في «نادي التجّار»بنظرات مقت وريبة. ولكن ما أن كشف له سي علاّل عن سبب هذه الزّيارة حتّى استرخت ملامحه وهدأت نفسه، وأبدى استعدادا للمشاركة في هذا العمل الخيريّ،كما سمّاه. وتمّت زيارة المعرض، فعلا، صبيحة يوم أحد بحضور الطّبيب المختصّ والحاج عشيبة وعبد النّعيم والمهيدّي والذويّب وبعض العمّال. وساد فضاء المعرض صمت رهيب إثر وصول جعفر متأبّطا ذراع سي علاّل، ملتفّا بمعطفه الأسود الكبير الذي يستر كيانا منتفخا حتّى الرقبة بفعل العلاج الكيميائيّ. وجم كلّ الحاضرين، لرؤية جعفر على تلك الصّورة المحزنة، وطفت على وجوههم أمارات الصّدمة والأسى، باستثناء الذويّب الذي كشفت بسمته الحاقدة الشّامتة عن أسنان اصطناعية مثيرة للغثيان...

وقفوا مندهشين من تحوّل الفتى النّحيف الذي كان يرتع في فضاء المعرض، منذ عهد قريب، بخفة فهد عرضا للسّلع وتخزينا لها، إلى كرة الشّحم الضّخمة هذه، التي يكاد لا يبين منها رأسه الصغير بحجم حبّة الزيتون!

كان الحاج عشيبة أوّل من تقدّم لاستقبالهم في مكتبه وتقديم فروض الضيافة: صينية شاي وطبق حلويات. لم يمدّ سي علاّل كفّه إلى الصّينية، لكنّ جعفر أجهز بشبق مقزّز على كل ما كان بالطبق من دون حتّى أن يهتم بما يدور حوله من حديث أو أن يعبأ بالحاج عشيبة وهو يبارك له الزّواج ويسأله عن أحوال صحّته!

ونزلوا أخيرا إلى مخزن المعرض حيث أجلس سي علاّل جعفر على كرسي خشبيّ بركن منزو من المعرض، ووضع في حضنه صندوق أطباق صينيّة تُصنع في معمل الحاج عشيبة واختفى. وبعد ربع ساعة من الصّمت المطبق وشرود جعفر العجوز اخترق عبد النّعيم وثلّة من العمّال مخزن المعرض وانقضّوا على جعفر، كما لو أنّهم ضبطوه متلبّسا، وأخذوا يعنّفونه ويصرخون، كما أفهمهم الطّبيب، متّهمين إيّاه بالسّرقة لعلّ هذا الوضع الحرج يحرّك كامن نفسه ويحفّزه ليتذكّر شيئا من ماضيه. لكن جعفر بدا في هذه التّجربة أشبه ما يكون بظلّ عمود من أعمدة المخزن الخرساء؛ لم تصدر عنه حركة أو انفعال؛ كان، في أثناء هذه القيامة، ينظر إليهم بكثير من البرود والدّهشة، بل إنّه أطلق قهقهة غريبة قبل أن يعود لترنّمه المتقطّع غير المميّز. وهو ما جعل الطّبيب يقتنع باستحالة الوصول إلى نتيجة بمثل هذه التّجارب، وإلى ضرورة الاعتماد على عامل الزّمن والاستشفاء الكيميائي على الرغم من بطئه، وتداعياته الصّحية السلبية، وأخطاره.

وانهارت آمال كلّ من مليكة وفتّة، اللّتان كانتا تنتظران عند مدخل المعرض الفسيح، بمجرّد ما لمحتا خروج جعفر يجرّ رجليه كما دخل متأبّطا ذراع سي علاّل.

اكتفى هذا الأخير باصطحابه إلى دكّانه، حيث يقضي جعفر ساعات طوال لا يتكلّم في شيء، ولا يعبأ بالردّ على تحيّات الزّبائن واستفسارهم عن أحواله، بل إنّه لم يعد ينتبه إلى وجود شيء البتّة غير هذه الفجوة المضيئة في أعلى بوّابة الدكّان التي يحلّق بصره عبرها مع عصافير مارقة وسحابات عابر وفراغ ممتدّ إلى ما لانهاية...ولكن، ما أن يشغّل سي علاّل أسطوانة التّرتيل القرآني حتّى يطرق جعفر بحزم وانتباه شديدين، وتتحرّك شفتاه ببطء وتوتّر كما لو أنه يردّد مع المقرئ ما يتلوه من ذكر حكيم«سبحان الله، القرآن الكريم هو الشيء الوحيد الذي ظلّ منقوشا بذاكرته!» يعلن سي علاّل ونشوة يقين تفيض عن نظراته.

وبمرور الأيّام أخذ جعفر ينطق، بمرح أحيانا، ألفاظا من قبيل «مّا» و«لا»، ويقبّل يد فتّة، وعندما تصعد أمّه إلى السّطح يقترب منها ويشرع في تأمّل وجهها ببطء، بينما تغالب هي نحيبا جارفا يضطرم في وجدانها مثل بركان عجوز، ثم يلتفت إلى فتّة كأنه يسألها عن هويّة المرأة. عندئذ تنطق فتّة «مّا» فيكرّر جعفر مبتسما «مّا» لتعانقه مليكة، وهي تجهش ببكاء مرّ يكاد يصرعها. ثمّ اكتسب وعيه، شيئا فشيئا، ألفاظا أخرى دأب ينطقها كاملة: «هذه؟»، فتجيب فتّة: «طاولة؛ هذه طاولة، وهذا سرير..سريرنا أنا وأنت.. أنا.. أنا.. أنت. أنت.. غرفة.. غرفتنا...هذه يدي.. يدي.. أصابع : هذا صبيّع عاقل، هذا زين الخواتم، هذا طويل وأحمق، هذا لحّاس المرق...تعالى، خُذ...هذه قُبلة...بُوسة...».ويردّد جعفر مرتعشا وهو يقبّلها بعنف ولهفة: «بُوسة..بُوسة». وعند غسق عاصف يتناهى إلى سمع فتّة صوته المبحوح الخافت، وهو يسأل من موقعه على كنبته المفضّلة قرب النّافذة من دون أن يستدير نحوها«هذه ؟» تنكبّ عليه برفق وتضمّه من الخلف حتّى تتلاصق وجنتيهما وتهمس:«ووف ... ووف.... ريح.. ريح الخريف..الخريف..انظر..شوف..أغنية حبّنا...عصافير...عصافير صغيرة تقاوم ريح الخريف...العصافير تحاول أن تطير.. تطير...تطير...».وعندما يصدح صوت فتّة بأداء أغنية «يا عصفوري الحبيب...طير ولا تغيب..يخفق جناحك بذكري..ولذكراك قلبي أسير» يقترب منها جعفر، كما لو تذكّر أخيرا شيئا من الماضي، يدفن في حضنها رأسه بهدوء ويهمس مردّدا «عصفور...جريح..يعشق..الرّيح».

وتمضي الأيّام بالحبيبين صاخبة عاصفة حينا، رحيمة وديعة حينا آخر. وقبيل عصر خريفيّ يرفّ رمش عين مليكة؛ تستعيذ بالله وتخفّ إلى السّطح لتجمع غسيلها. في تلك الأثناء، تكون فتّة، عادة، غارقة في إغفاءة هانئة بعد وجبة الغذاء. وإذا ما هبّت رياح خفيفة فإنّها ستعبث حتما بستائر النّافذة الشّفافة التي سوف تتماوج بإيقاع هادئ ناعم. ومليكة لن تكتفي، في مثل هذه المناسبة بجمع غسيلها؛ سوف تتقدّم نحو المدخل الأمامي للغرفة، ستدفع الباب بحذر لكي لا توقظ فتّة، وتستأثر ما شاءت برفقة صغيرها وأعزّ أحبابها...لكن ثمّة وجود لصمت مهيب يخيّم على أجواء الغرفة، هذا اليوم؛ صمت منذر تكسره، من حين لحين، زقزقة عصافير تكاد تبين من فرط توتّرها، وشخير فتّة الخافت المتقطّع أشبه ما يكون بالنّحيب...!

كان على مليكة أن تبادر إلى تعديل رأس فتّة على المخدّة، أوّلا، لكنّها لم تفعل؛ أخذت تمسح الغرفة بنظرات متوجّسة وروح قلقة...انبطحت أرضا تبحث تحت السّرير، وفي الدّولاب، وخلف الكنبات... قبل أن تطير إلى الحمّام بخفّة فهد؛ لكن جعفر لم يكن هناك أيضا! أصاخت السّمع، من خلال كوّة الحمّام الهوائية الصّغيرة، فإذا صوته الخافت المبحوح يتردّد بإيقاع ثقيل مضطرب لم تك لتميّز منه أكثر من كلمتي:«عصفور..جريح »!.

وتخف مليكة، على متن ذعرها وفتنتها، إلى النّافذة المطلّة على جهة السّطح الخلفيّة...أنّى لها أن تتمالك نفسها، الآن، وتكبت هدير شهيق منبعث من الوجدان؟!. لا تتردّد؛ تقفز إلى السّطح عبر النّافذة المشرعة بخفّة لا تناسب سنّها. تخترق كالمجنونة حبال الغسيل. تتخبّط في الملابس المبتلّة الثقيلة لتجد نفسها على بعد خطوات من جعفر. في مكانها وعلى بِركة بولها الحار تتسمّر قدما مليكة. تلفّ الدّنيا من حولها وتدور السّماء ألف دورة ودورة حتّى يرشح جسدها عرقا باردا كالصّقيع! تنتبه، أخيرا، عاجزة عن الحركة أو النّطق أو الصّراخ. يشلّ الموقف المفزع كلّ كيانها. تعبر مخيّلتها، في لحظة مثل البرق، صور خاطفة لجعفر مذ كان طفلا يبعث الفوضى في أرجاء البيت القديم إلى لحظة زفّه إلى فتّة بالبكاء والزّغاريد... توشك مليكة أن تنهار على بلاط السّطح لو لم تتداركها فتّة الشّاحبة مثل ميّت، بشعر أشعث ونظرات زائغة وأنفاس لاهثة متقطّعة. حتّى هي تشده إلى جعفر، غير مصدّقة أنّه يمشي، الآن، الهوينى على حافة السّطح الناتئة مقلّدا العصافير؛ خطواته قصيرة، بطيئة، غير واثقة. هامته مرفوعة إلى السّماء. عيناه مشتعلتان فرحا مجنونا. وذراعاه مشرّعتان عن آخرهما لعناق الفراغ... وبينا شرعت رياح خريفية خفيفة تعبث بأطراف قميصه المفتوح، كان لا يزار يردّد بصعوبة وانتشاء أغنية حبّهما المأثورة :

«يا...عصفوريٍ...الجريح...كسر حلمَك...عناد الرّيح...

(تمّت)